مصر في شعر الجارم

دراسة موضوعية وفنية

دكتور/ بدر الدين سليمان أحمد محمد
مدرس الأدب والنقد
بجامعة الأزهر

مقدمـــــــــــــة

الحمد لله رب العالمين، والصـــلاة والســـلام علـــى أشـــرف المرسلين سيدنا محمد النبى الأمين، الذى رفع الله بـــه منـــار العلـــم والدين أفصح العرب لساناً وأعلاهم بياناً، وعلى آله وأصحابه الغـــر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،

فهذا بحث أقدمه بين يدى القارئ الكريم، حاولت من خلالـــه أن أثبت أن مصر طبيعة وأرضاً وأهلاً وشعباً قد تغلغل حبها فى كـــل القلوب وأخص القلوب قلوب الشعراء، فالجـــارم وإن كـــان عاشـــقاً للعروبة معتزاً ومفتخراً بها فإن حبه لمصر قد فاق كل حب.

تعـــــيش مصـــــــر وتبقـــــى

فقـــــرة العـــــين مصـــــــر

الجارم

دكتور/ بدر الدين سليمان أحمد محمد
مدرس الأدب والنقد
بجامعة الأزهر

الفصل الأول

التمهيد

التعريف بالشاعر

الجارم: جوانب شخصية وروافد شاعرية

بيئتـــــــه:

من عائلة غنية بمفاخرها وأمجادها، ثرية بمناصبها وعلمها، عظيمة بتقاليدها وأصولها وأعرافها، في مصر ولد وعلـــي أرضـــها شب ونما وترعرع، وفي أحضان اعتد لها تنسم، ومن ماء نيلها عبَّ ونهل وتحت سمائها استظل وعاش، وتفيأ ظل أشجارها ونخيلها ومن ربوعها انطلق إلي شتى الربوع والبقاع فكان شاعر العروبـــة الأول وشاعر مصر الأوحد إنه علي الجارم".

هو ((علي محمد صالح عبد الفتاح إبراهيم بن محمد الجارم))

والده هو الشيخ محمد صالح بن عبد الفتاح بن إبراهيم بـــن محمد الجارم العالم الديني واللغوي الأديـــب، والـــذي كـــان مفتيـــاً للمحافظة كما أنه كان قاضياً شرعياً لمحافظتي الفيـــوم والشـــرقية،

وأمه كانت من فضليات النساء فكانت من أشرفهم حسباً ونسباً، فقد كانت تنسب إلي عائلة السيسي من أشهر الأسر في مدينة رشيد" (١).

والشاعر علي الجارم يصل نسبه إلي الإمام علي بن أبي طالب كرمَّ الله وجهه ولقد ذكر ذلك في شعره في قصيدته التي قالها في مدح الرسول ﷺ والتي يقول في البيتين الأخيرين منها: هي بعنوان أيا الزهراء:

ولي نسب ينمي لبيتك صاننني وصانته مني عزة وإباء

عليك سلام الله ماذرَّ شارق وما عطَّر الدنيا عليك ثناء(٢)

وقد اسماه والده " بعلي " تبركاً باسم جده الأعلى علي بن أبي طالب فهو من سلالة بن عم النبي ومن سلالة ابنته ﷺ وأشار أيضا إلي هذا النسب في قصيدة أخرى بعنوان "اللغة العربية قال فيها:

يا جيرة الحرم المزهو ساكنه سقى العهود الخوالى كل

لي بينكم صلة عزت أواصرها لأنها صلة القرآن والنسب (٣)

(١) علي الجارم باحثاً وأديباً، محمد الغزالي حرب صـ ٩.
(٢) ديوان الجارم جـ٢ صـ ١٧.
(٣) نفسه ط١ صـ ١٤٩.

مولده ونشأته

ولد الشاعر علي الجارم في اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر عام ألف وثمان مئة واثنتين وثمانين من الميلاد لأسرة كريمة من أسر مدينة رشيد ونشأ في بيت علم وديـن وأدب، وقـد ظهرت عليه مخايل الذكاء ورهافة الإحساس والعاطفة، فحرص والده علي تنمية كل هذه الأشياء بالتشجيع والدراسة، وكان من آثار ذلـك أنه قال الشعر في سن مبكرة، وكان ذلك عندما دهم الوبـاء مدينـة رشيد وكان عمره حينذاك لا يزيد عن خمسة عشر عاماً " كما حرص والده علي أن يؤدبه بالآداب الإسلامية والمكارم الأخلاقيـة فيحسـن تأديبه ولاسيما خلق القناعة التي كان يعتبرها كنز لا يغني" (١)

وقد عمل والده جاهداً علي تعويده وترويضه علـي النطـق السليم وقد ساعده علي ذلك أن جعله يجود القرآن ويرتله مما كان له أكبر الأثر في جعله من القلة النادرة التي تقول فتبـين وتفصـح ولا تسرد الكلام سرداً، فكان إذا أنشد السعر فهو الإنشاد الذي لا يرقـى لمثله أحد فكان يتمثل معاني الشعر أثناء إنشاده، ولهذا كـان أميـر الشعراء أحمد شوقي لا يختار لإلقاء شعره إلا علي الجارم" ومن هنا نجد أن علي الجارم نشأ في كتف والد محبٍ للعلـم والـدين، ولقـد أرسله والده فى صباه مع إخوته إلي الأزهر الشريف كما كانت تفعل

(١) علي الجارم شاعر العروبة د. محمد رجب البيومي صـ٢١.

الأسر الدينية الحريصة علي العلم في ذلك الوقت لطلب العلم علي أيد أساتذة أجلاء من أمثال الشيخ الإمام " محمد عبده" الذي كان له أكبر الأثر في نفس الجارم بعد ذلك مما جعله يمدحه بقصيدة عظيمة وهو لازال طالب في رحاب الأزهر، إن دلَّ هذا علي شيء فإنما يدل علـــي تقدير الجارم للإمام، كما يدل علي أن الجارم قال الشعر وهو في سن مبكرة من حياته، وبعد أن أنهى دراسته للمرحلة الثانويـــة بـــالأزهر ألتحق بكلية دار العلوم لميله الحقيقي لدراسة اللغة والأدب والشعر، وعندما تخرج من دار العلوم كان تربيته الأول علـــي أقرانـــه ســـنة ١٩٠٨م أرسلته الدولة في بعثه إلي انجلترا فأقام سنة فـــي مدينـــة "نوتنجهام" ودرس اللغة الإنجليزية ثم ألتحق بالكلية الجامعة بإكستر ومكث بها ثلاث سنوات درس في خلالها علم النفس وعلوم التربيـــة والمنطق والأدب الإنجليزي حتى حصل علي الإجازة فـــي كـــل هـــذه المواد، وأخيراً عاد إلي مصر في أغسطس عام ١٩١٢م فعين مدرساً بمدرسة التجارة المتوسطة، ثم نقل بعد سنة إلي كليـــة دار العلـــوم فعمل مدرساً لعلوم التربية وعلم النفس"(١)

وفي عام ١٩٣٤م وعند إنشاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة اختير ضمن أعضائه المؤسسين، ثم عين عميداً لكلية دار العلوم حتى بلغ سن الستين عام ١٩٤٢م وتوفى في ثمانٍ من شهر فبراير ســـنة

---

(٢) علي الجارم باحثاً وأديباً صـ ١٠.

ألف وتسعمائة وتسع وأربعين عن سبع وستين عاماً رحمه الله وأجزل له العطاء جزاء ما ترك من علم وشعر وأدب وعلوم لسانية.

ثقافته وروافد شعره

لابد لكل أديب أو مبدع من روافد، هذه الروافد تعمل علي إثراء عمله الأدبي وهذه الروافد هي التي تمده بعناصر الإبداع التي يستمد منها شاعريته وهذه الروافد مجتمعه أنتجت لنا شعر الجارم إضافة إلي موهبته الخاصة وأول هذه الروافد [منبت الجارم، ونشأته]

النشأة والأسرة المحيطة بالطفل تعد من أعظم الروافد التي تعمل علي صبغ الموهبة منذ باكورتها بصبغتها وتوجيهها الوجه الصحيحة فلقد نشأ الجارم في أسرة علم ودبن، فوالده الشيخ محمد صالح الجارم كان قاضياً شرعياً وعالماً بالدين واللغة "كما كان شاعراً وأديباً يحرص علي تعليم أولاده علوم الدين واللغة"(١) .

وقد أشار الجارم إلي هذه التنشئة والجو العلمي في قصيدته التي قالها في عام ١٩١٣م تهنئة لصديقه محمد بدر الدين بمناسبة حفل زواجه والتي مطلعها

هدي الديار وأنت شاعر فانثر كريمات الجواهر

(١) مقدمة ديوان الجارم طبعة دار الشروق

إذ يقول:

يا بن الأولـــي كانـــت لهـــم فـــي كـــل حادثـــة مـــآثر
كانـــت رشـــيد بحـــدك إلا عْلي تتيـــه علـــي الحواضـــر
قـــد كـــان ردئـــاً للعبـــا د، وكـــان موئـــل كـــل عـــاثر
كـــم ردَّ غائلـــة المحـــا فـــظ والمحصـــل والمباشـــر
عصـــر يجـــدي ثـــم جـــدك كـــان بالعليـــاء زاهـــر
ســـهرا فنـــام البائســـو ن، محصـــنين مـــن المخـــاطر
وتقاســـما فضـــل الفخـــا ر ونـاديـا هـل مـن مفـاخر
جـــدي بعلـــم ناصـــع يهـــدي وليـــل الشـــك عـــاكر
وبمقـــول يفـــرى الحديـــد ويصرع الخصـــم المكـــابر (١)

الرافد الثاني:

ومن روافد ثقافته "حفظه للقرآن الكريم" فلقد حفـظ الجـارم القرآن الكريم وهو لازال صبى غضٌّ الإهاب وجوَّده ورتله مما كـان له أكبر الأثر في تجويد وتهذيب شعره فقد أعانه القرآن بحسن نظمه وفريد حكمه علي تمثل معانيه وروجه في شعره، فوجدناه يكثر مـن الاقتباس بل كان يستعمل في صياغته آيات برمتها من ذلـك علـي

(٢) الديوان جـ٢ طبعة دار الشروق صـ ٥٢٤.

سبيل المثال لا الحصر في قصيدته التي بعنوان الحب والحرب والتي مطلعها:

مالي فتنت بلحظــك الفتــاك وســـلوت كـــل مليحـــة إلاك

جاء فيها قوله:

مالي فتنـــت بلحظــك أو أنَّ يطـــوي الســـماء طـــواك (١)

ففي الشطر الأول من البيت اقتباس من سورة التكوير آيـــة رقم (٦) وهي قوله تعالي " وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ"

وفي الشطر الثاني إشارة إلي الآية القرآنية رقم (١٠٤) من سورة الأنبياء وهي قوله تعالي "يَوْمَ نَطْوِي السَّـمَاء كَطَـيِّ السِّـجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ"

وفي قصيدته يوم السلام والتي مطلعها:

داعب الشرق باسماً وســعيد وائتلق يا صباح للناس عيداً (٢)

ففي البيت الرابع والعشرين والخامس والعشرين منها نجـده بصور نار الحرب ولهيبها ولا يجد لها شبيها إلا نار جهنم إذ يقول:

لهف نفسي والنار تعصـف ـش، فتلقاه في الرياح بديـداً

(١) الديوان طبعة دار الشروق صـــ ٤٥ ط١.
(٢) الديوان طبعة دار الشروق صـــ ٢٨.

ذكرتنا جهنمـــاً كلمـــا أُلْـــــ ـــقِيَ، فـــوج صـــاحت تريـــد

ففي الأبيات إشارة إلي الآية الكريمة رقم (٣٠) من ســـورة (ق) والتي يقول الله فيها "يوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ" وعلي آية حال فإن الديوان زاخـــر بمثـــل هـــذه الاقتباســـات والإشارات، إن دل هذا علي شيء فإنما يدل علي أن الجارم أُشـــرب قلبه القرآن وتمثله في معانيه ومفرداته الحياتية.

الرافد الثالث :

أما عن الرافد الثالث الذي كان له أكبر الأثـــر فـــي توجيـــه الجارم وموهبته الشعرية والأدبية فهو التحاقه بالأزهر الشريف حامل لواء العربية وحافظ ديوان العرب شعراً ونثراً وتاريخاً فقد درس فيه علوم اللغة والأدب والشعر والنحو والبلاغة وعلم التصـــريف علـــي أيدي أساتذة أشادوا وشيدوا للدين واللغة صروحاً عالية البنيان، وقد أفاد الجارم من هذه أيما إفادة حيث استظهر في الأزهر شعر القدماء ونثرهم، وأتقن علومه حتى أنه سيطر عليه سيطرة تامة وفـــتن بـــه ودافع عنه دفاع محب عاشق فهو كما قال عنه أحد الباحثين:- " كان الجارم أحد الفرسان الصائلة في ميادين الفصاحة الباهرة وظل يدافع طوال حياته عن اللغة العربية وعن أصالتها وخاصـــة عنـــدما كـــان يستشعر تهجما عليها من بعض الأشخاص أو من بعض الفئات سواء

(٣) الديوان طبعة دار الشروق صـــ ٢٩-٣٠.

كان ذلك لمأرب مباشر أو غير مباشر، فنجده في عام ١٩٤٦م ينبري لاقتراح المرحوم عبد العزيز فهمي عضو مجمع اللغة العربية باستعمال الحروف اللاتينية لكتابة العربية، وتقدم باقتراح مضاد يعتمد في تيسير الكتابة علي الحروف العربية، كما انبرى أيضا للداعين باستعمال اللغة (١) العامية واعتبر ذلك كفراً وإلحاداً باللغة التي بُهِرَ بها ورأها أعرق اللغات وأغناها، كما انبرى في أخريات حياته لمن ادعوا التجديد في الشعر العربي وخرجوا عن أصوله وقواعده، فتركوا أوزان الشعر وبحوره وتركوا قافية القصيدة وموسيقاها وابتدعوا شيئاً آخر وأسموه بالشعر الحر"(٢)

نجده قد واجههم في صراحة في قصيدته الشهيرة خلود والتي أنشأها عام ١٩٤٧م والتي قال في مطلعها:

ضلَّ شعرى ونـدَّعَنيِّ ما علي الشاعرين لو أرشدني (٣)

فنجده ينعى علي هؤلاء الأدعياء من دعاة التجديد ويصفهم بأنهم معاول هدم لصرح اللغة العربية الشامخ إذ يقول:

سكت العندليب في وحشة ح، وغنَّتْ نواعق الغربان

فسمعنا من النشوز أفانين يروِّعْنَ صادح الأفنان

(١) كلمة اللغة هنا ليست في محلها الصحيح والصواب أن يقول لهجة لأن العامية المصرية واحدة من عدة لهجات تجمعها اللغة العربية

(٢) الجارم في ضمير التاريخ صـ ١٥٣.

(٣) الديوان صـ ٣٥٣.

أسمعونا يرغمنـــا فصـــيرنا ... ثم ثرنـــا غيظـــا علـــي الآذان

جلبوا للقريض ثـــواب مـــن ... ب، ولم يجلبوا سوى الأكفـــان

ثم قـــالوا مجـــددون فـــأهلاً ... بصـــناديد أخريـــات الزمـــان

لا تثورا علي تراث امـــرئ ... ـــس، وصونوا ديباجة الذبياني

واتركوا هذه المعاول باللـــــ ... ـــه فإني أخشى علي البنيـــان

واحفظوا اللفظ والأســـاليب ... ق وهاتوا ما شئتم من معـــاني

ما لسان القريض من عربي ... كلسان القريض من طمطـــاني

إنما الشعر قطعة منك ليست ... من دمـــاء اللاتـــين واليونـــان

كل فـــن لـــه مكـــان وأهـــل ... إن غدا العلم ماله مـــن مكـــان

وجهه الشرق غيرها وجهة ... ـــرب فأنيَّ وكيف يلتقيـــان(١)

---

(٤) الديوان صـــ ٣٥٤.

الرافد الرابع :

وأما عن الرافد الرابع من الروافد التي كونتْ ثقافة الجارم وموهبته وعناصره الإبداعية فهو دراسته في كلية دار العلوم المسئول الثاني بعد الأزهر علي اتصالهما واتحاد علومهما عن اللغة العربية وصيانتها من كل دخيل، لقد كانت الدراسة في دار العلوم في ذلك الوقت دراسة عميقة وجادة اتخذت لها خطأ فريداً في دراسة اللغة والأدب فصبغت أبناءها بصبغة تميزهم عن غيرهم تجمع بين القديم والحديث في شعرهم فهو كما يقول عنه الأستاذ عباس محمود العقاد " سلفي عصري لغوي عربي"(١)

الرافد الخامس :

أما الرافد الخامس من روافد شعره وثقافته، فهو بعثته إلي انجلترا مما جعله غير محصور علي دراسة التراث العربي فقط، بل تأثر بالثقافة العالمية أضف إلي ذلك ما درسه من علوم في هذه البعثة من علوم تربوية، وعلم النفس والمنطق، وقد أجاد في بعثته اللغة الإنجليزية حتى أنه ترجم بعض الأعمال مثل كتاب العرب في أسبانيا لمؤلفه "لستانلي لاين" عام ١٩٤٦م وبسبب إجادته للغة الإنجليزية فقد أطلع علي آداب الغرب فاتسعت مجالات الحضارة أمامه مما لاشك أنه تأثر به وقد ظهر ذلك جلياً في شعره.

---

(١) مقدمة الديوان كلمة العقاد عن الجارم صـ ٩.

الرافد السادس :

وأما الرافد السادس فهو زيارته للأقطار العربية ممثلاً رسمياً لمصر في بغداد فقد زارها ثلاث زيارات، كان في الأولي ممثلاً لمصر والمجمع اللغوي في المؤتمر الطبي ببغداد سنة ١٩٣٨م وفي هذا المؤتمر أنشد قصيدته الشهيرة:

بغداد يا بلد الرشيد ومنارة المجلد التليد
بغداد يا دار النهي والفن يا بيت القصيد (١)

والزيارة الثانية التي توجه فيها إلي بغداد، فقد كان نائباً عن وزارة المعارف للاشتراك في حفلة تأبينئة كبرى لراحل عظيم، وعندها أتيح له أن يحضر الحفل المقام بمناسبة الصلح بين قبائل شمر والعبيد الذي أقامته السفارة المصرية بهذه المناسبة فكان الجارم شاعر الحفل.

والزيارة الثالثة، كان قد ذهب ليشارك في تأبين الشاعر جميل صدقي الزهاوي.

وكذلك قام بزيارة إلي الأردن وسوريا، ولبنان وزياراته لهذه الأقطار بالطبع عاد عليه بفائدة جمة من تعرف على طبائع هذه الشعوب.

---

(٢) ديوان الجارم ط صـ ١٢٧.

الرافد السابع :

هو انضمامه لمجمع اللغة العربية بالقاهرة فقد عاد عليه بفوائد عظيمة ظَهر أثرها جلياً في إبداعاته الفنية شعرية كانت أو نثرية وبهذه الروافد مجتمعة كان علي الجارم العالم، والنحوي والتربوي والشاعر والناثر، أضف إلي ذلك كلمة الموهوب.

المبحث الأول

مصر في القرآن وفي روائع البيان

أولاً: مصر في القرآن الكريم:

الأرض بجميع أقطارها مخلوقة لله سبحانه وتعالي إلا أنه تعالى يفضل بعض خلقه علي بعض، ويحب بعض مخلوقاته عن الآخر، فها هو سبحانه يقول " تلك الرسل فضلنا بعضهم علي بعض"

كما فضّل بعض الأيام علي بعض وبعض الشهور علي بعض فهناك أيام أفضل من الأخرى فأيام الأعياد أفضل من غيرها كذلك أيام العشر من ذي الحجة العمل فيها أحب من غيرها وأن لله في بعض الأيام نفحات علي عبادة لذلك جاء في الأثر "إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها" وكذلك فضل بعض الشهور علي بعض بقول تعالي "إن عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهراً يوم خلق السماوات والأرض فيها أربعة حرم"(١) فالأشهر الحرم مفضلة عند الله عن غيرها.

وكذلك فضل بعض الأماكن علي بعض فقد فضل الله الكعبة علي غيرها حيث قال سبحانه "جعل الله الكعبة البيت الحرام"(٢)

---

(١) سورة البقرة آية رقم ٢٥٣.
(٢) سورة المائدة آية رقم ٩٧.

وكذلك فضل مكة وذكرها في القرآن حيث قال "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً"(١)

وفضل المسجد الأقصى وما حوله حيث قال "سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى الذي باركنا حوله"(٢) وإذا كان قد فضل بعض الأماكن علي بعض فإنه فضَّل مصر الدولة علي الإطلاق علي كل البلاد فهي مصر الخير الوفير اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتهم"(٣) وهي مصر الأمن والأمان "ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين"(٤) وقد قضت مشيئة الله عزّ وجل أن يفضل مصر علي باقي البقاع لذلك فإن الله قد ذكرها في القرآن أكثر من عشرين مرة باسمها الصريح أو بعرض ما وقع علي أرضها من أحاديث وأحداث الذكر الذي يطلق عليه الذكر الضمني. والرسول ﷺ

قد أوصى المسلمين بها إذا ما تمَّ لهم فتحها، أن يعاملوا أهلها بالخير، وأن يتخذوا منهم جنداً كثيفاً لأنهم خير أجناد الأرض، ولأن من قدرها أن يبقى أبناؤها في رباط إلي يوم القيامة.

ومن يبحث في تاريخ مصر علي مدار خمسة آلاف عام يخبر بخبر سيدنا "إدريس" والذي يذكر في العهد القديم باسم "أخنوخ" هو

---

(٣) سورة آل عمران:٣٣.
(٤) سورة الإسراء آية رقم ١.
(٥) سورة البقرة آية رقم ٦١.
(٦) سورة يوسف آية رقم.

ابن مصر أول من دعا إلي التوحيد ثم سار علي دربه "ابـــن مصـــر الثاني "إخناتون"(١)

ومن بعدهما جاء نبي الله "إبراهيم" الخليل أبو الأنبيـــاء إلـــي مصـــر ويختار إحدى بناتها السيدة هاجر التي رزقة الله منها بابنه إسماعيل أبا العرب والذي أصبحت به مصر خئولة العرب، ثم أصبحت أشـــواط هاجر وهي تبحث لطفلها الرضيع عن الماء هي أشواط السعي بـــين الصفا والمروة.

ويمضي الزمان بمصر فيفد إليها نبي الله يوسف عليه السلام ليكون الأمين علي خزائنها لعزيز مصر، ويستقدم بعدها أباه يعقـــوب وإخوته أبناء يعقوب.

ثم يظهر بعد ذلك في مصر أيضا نبـــي الله "موســـي" عليـــه السلام ويكون له مع فرعون تاريخ طويل عرض له القرآن في أكثر من سورة.

ثم مرت العائلة المقدسة "السيدة مريم البتول والسيد المسيح عليهما السلام فوجدا في مصر المرفأ والمحضن الأمن الذي حماهما وحمى المسيحية كلها من عسف الرومان.

وفي ختام الرحلة الودود المتعاطفة والحامية الكبرى لمصـــر مع رسالات الله العظيمة كان ظهور الإسلام وإشعاع نوره علي أرض

---

(١) راجع في ذلك كتاب في موكب الشمس د. أحمد بدوي جـ٢ طبعة سنة ١٩٥٠م .

مصر الذي من خلاله أصبحت مصر صاحبه حضارة إسلامية تشع بنور الإسلام علي ربوع وبقاع الدنيا بأسرها وبهذا يكون مسك الختام الذي جاء به الرسول الخاتم محمد صلوات الله وسلامه عليه. (١)

ذكر مصر في القرآن الكريم والسنة المطهرة فلقد ذكرها الله في أربعة وعشرين موضعاً منها ما هو بصريح اللفظ ومنها ما دلت عليه القرائن والتفاسير.

أولا- ما ذكر فيه اسم مصر بصريح اللفظ:

(١) في سورة يوسف في قوله تعالي " وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاه مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً" (٢)

(٢) وقوله تعالي علي لسان يوسف أيضا " ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ" (٣)

(٣) وقوله تعالي في توجيه موسي لبني إسرائيل عندما طلبوا من نبيهم موسي عليه السلام الموائد والأغذية العديدة عندما قال لهم "اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ"(٤)

(٤) وقوله تعالي يخبر عن فرعون وافتحاره بملك مصر "أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي" (٥)

---

(١) راجع في ذلك – فضائل مصر د. إبراهيم أحمد العدوي ٣-٢-٥.
(٢) سورة يوسف آية ٢١.
(٣) سورة يوسف آية رقم ٩٩.
(٤) سورة البقرة آية ٦١.
(٥) سورة الزخرف آية ٥١.

(٥) وقوله تعالي " وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً " (١)

وأما ما دلت عليه القرائن فمنه قوله تعالي:

(٦) "وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ" (٢) قال بعض المفسرين هي مصر، وقال بعض علماء مصر هي"البهنسا" بصعيد مصر.

(٧) وقال تعالي "وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ" (٣) والمدينة هي منف، والعزيز ملك مصر حينئذ.

(٨) وقال تعالي " وَدَخَلَ المَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا"(٤) وهي مدينة فرعون منف أيضاً.

(٩) وقوله تعالي "وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا المَدِينَةِ يَسْعَى" (٥) وهي منف أيضا.

(١٠) وقال تعالي حكاية عن إخوة يوسف "يَا أَيُّهَا العَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ" (٦)

---

(٣) سورة يونس آية ٨٧.
(٤) سورة المؤمنون آية ٥٠.
(٥) سورة يوسف آية ٣٠.
(٦) سورة القصص آية ١٥.
(٧) سورة القصص آية ٢٠
(٨) سورة يوسف آية ٧٨.

(١١) وقال تعالي حكاية عن يوسف "وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ البَدْوِ " (١) فجعل الشَّام بدواً والمدينة مصر.

(١٢) وقال تعالي وصف مصر وما كان فيه آل فرعون من نعمة وملك بما لم يصف به مشرقاً ولا مغرباً، ولا سهلاً ولا جبلاً ولا براً ولا بحراً "كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ" (٢) فهل يعلم أنَّ بلداً من البلدان في جميع أقطار الأرض أثنى عليه الله في قرآنه بمثل هذا الثناء، أو وصفه بمثل هذا الوصف أو شهد له بالكرم غير مصر.

(١٣) وقوله تعال مخبرا عن نبيه يوسف عليه السلام " اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ"(٣)

(١٤) وذكر الله عز وجل وزراء فرعون وجلساءه في كتابه العزيز بحسن المحضر ورجاحة العقل، قال تعالي حكاية عن فرعون "قَالَ لِلْمَلأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ، يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ، قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي

(٩) سورة يوسف آية ١٠٠.
(١٠) سورة الدخان آية ٢٥ – ٢٧ .
(١١) سورة يوسف آية ٥٥.

المَدَائِنِ حَاشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ"(١) في الحديث النبوي والآثار الإسلامية

ورسول الله محمد عليه الصلاة والسلام أحبَّ مصر وأوصى بأهلها خيراً، ولقد روى أبو زرٍّ الغفاري عن رسول الله ﷺ أنه قال "ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقطبها خيراً فإن لكم منهم صهراً وذمة، وفي رواية أخرى لأبي زرَّ أيضاً: فإن لهم ذمة ورحما. صدق رسول الله ﷺ

وروى أبو زرٍّ أيضا عن النبي قوله "ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحما. (٢)

وفي رواية أخرى قال ﷺ " إذا فتح الله عليكم مصر فخذوا منها جنداً كثيفاً فإنهم في رباط إلي يوم القيامة وأما ما جاء عن فضائل مْصر في آثار الصحابة فإن أول وأجدر ما يذكر من ذلك عندما فتح الله مصر علي يد عمرو بن العاص في عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقد بعث عمرو بن العاص إلي الخليفة برسالة يصف فيها مصر يقول فيها: مصر تربة غبراء، وشجرة خضراء، طولها شهر، وعرضها عشر، يكتنفها جبل أغبر، ورمل أعفر يخط وسطها نهر ميمون الغدوات، مبارك الروحات، يجري بالزيادة والنقصان، كجري الشمس والقمر، له أوان تظهر به عيون الأرض، وينابيعها حتى إذا

(١٢) سورة الشعراء آية ٣٤-٣٧.
(١) مختصر صحيح البخاري باب فضائل الصحابة باب فضل مصر صـ ٤٦٢.

عج عجاجه وتعاظمت أمواجه، ولم يكن وصول بعض أهل القرى إلي بعض، إلا في خفاف القوارب، وصغار المراكب، فإذا تكاملت تلك كذلك نكص علي عقبة كأول ما بدأ في شدته، وطما في حدَّته، فعند ذلك يخرج القوم ليحرثوا بطون الأرض وأوديته وروابيه، يبذرون الحبَّ، ويرجون الثمار من الربِّ، حتى إذا أشرق وأشرف سقاه الندى من فوقه، وغذاه الشري من تحته، فعند ذلك يُدِرُّ حلابه، فبينما هي يا أمير المؤمنين دُرَّة بيضاء، وإذَا هي عنبرة سوداء، وإذا هي زبر جدة خضراء فتعال الله الفعَّال لما يشاء"(١)

(٢) فضائل مصر المحروسة – ابن الكندي تحقيق د. علي محمد عمر – طبعة الخانجي صـ ٤٢-٤٣-٤٤ – وينظر – النجوم الزاهرة – ابن تغري بردي ط١ ، صـ ١٠.

وصف العلماء لمصر:

قال المؤرخ الكندي: قال كعب الأحبار وهو من التابعين المتوفى سنة ٣٢هـ وهو من الخبراء بتاريخ الأمم الغايرة:

"من أراد أن ينظر إلي شبة الجنة، فلينظر إلي أرض مصر حين يخضر زرعها، ويزهو ربيعها، وتكسي بالنَّوار أشجارها" (١)

ولقد وصف بعض الحكماء مصر فقال: " هي ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء، وثلاثة أشهر مسكة سوداء، وثلاثة أشهر سبيكة ذهب حمراء، وثلاثة أشهر زمردة خضراء" (٢)

وقد قسمها علي الأشهر القبطية وفلاحي مصر يستخدمونها حتى يومنا هذا، فأما اللؤلؤة البيضاء فإنها أشهر أبيب ومسري وتوت، يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء، وأما المسكة السوداء فإنها في شهر بابه تنكشف الأرض فتصير أرضاً سوداء وتوضع فيها الزراعات ويبقي للأرض رائحة طيبة تشبه ريح المسك، وأما الزمردة الخضراء، فإنها في شهر طوبة وأمشير وبرمهات، تلمع الأرض ويكثر عشبها، ونباتها، فتصير الدنيا زمردة خضراء، وأما سبيكة الذهب الحمراء فإنها في شهر، برمودة وبشنس وبؤنة يبيض الزرع،

---

(١) فضائل مصر – د. إبراهيم أحمد العدوي من سلسلة قضايا إسلامية- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية عدد ٤٨ صـ ٤٥.

(٢) نفسه صـ ٤٥.

ويتورد العشب فيشبه الذهب في المنظر ثم يحصد فيصير أكسية في صناديق الملوك وأكمام الرجال" (١)

قال سعيد بن هلال وهو من علماء مصر في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي اسم مصر في الكتب القديمة "أم البلاد" ومصر بلد العلم والحكمة من قديم الدهر، ومنها خرج العلماء الذين عمروا الدنيا بكلامهم، وتدبيرهم وحكمتهم، وبمصر من العلوم التي عمرت علي أساسها: علم الطب اليوناني، علم النجوم والفلك، علم الهندسة، علم الكون، علم الكيمياء، والشعر اليوناني واللغة اليونانية، ولقد أخذ "فيثاعورث" علم الهندسة عن المصريين. وأخذ "أبو قراط" صاحب الحكمة عن " فيثاعورث".

وأخذ سقراط عن فيثاغورث فى بلاد النوبة ونقل عن كنت مصر، ومن ثم جاء اتصاله بمصر. وأخذ جالينوس صاحب الطب الذي دخل مصر وسلكها حتى آخرها في بلاد النوبة وكمل عن كتب مصر.

ولقد رُوِىَ عن أبي بصيرة الغفاري وهو أحد الصحابة الذين نزلوا مصر): "مصر خزانة الأرض كلها وسلطانهم سلطان الأرض

---

(٣) سورة يوسف آية ٥٥.

كلها قال تعالي علي لسان يوسف عليه السلام "قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ" (١)

ولم تكن تلك الخزائن بغير مصر فأغاث الله بمصر وبخزائنها كل حاضر وباد من جميع الأرض"(٢) هذا بعض ما لمصر في القرآن والسنة وعلي ألسنة أهل البيان ولو أن المقام مقام حصر لفضائلها لطال بناء المقام.

مصر في عيون الشعراء

حبُّ مصرَ متغلغل في قلب كل إنسانٍ نشأ تحت سمائها، ومشى فوق ترابها ونهل من نيلها، وأصاب من خيرها، فمصر هبة النيل مصدر الخضرة والنماء فُتنَ بها، وافْتنَّ فيها من عاش في رحابها، أوزارها، وهي صاحبة مجد تليد بناه الآباء والأجداد، ومجد طريف بناه الأبناء والأحفاد والشاعر أقدر علي تصوير حبه لمصر من سواه، ومن هنا كان من الأجدر بنا والأوْلى عملاً علي إتمام الرؤية البحثية وحتى يكون الجارم شاعر مصر الذي إن وصفها أو مدحها كان وصفه أو مدحه لها بمثابة رصد لمفاتن هذه الساحرة العامرة بخيرها وأهلها، والشعراء قديما وحديثا أحبوا مصر وترنموا علي قيثارة جمالها وشدوا بها سواء أكانوا من أهلها أو من غير

(٤) نقلا عن فضائل مصر صـ ٤٧ – ٤٨- ٤٩.
(١) نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب تحقيق د.إحسان عباس جـ ٢ ، صـ ١٠٥.

أهلها فهؤلاء الأندلسيون قد فتنوا بمصر أرضاً ونهراً وشعباً وحضارة حتى أطلقوا علي بعض مدتهم اسم مصر من أمثال "تدمير، ومرسية" لوجه الشبه بينها وبين مصر، لعل النيل ذلك النهر العظيم، الذي وهب مصر الحياة هو أهم ما يستحوذ علي انتباه الزائر لمصر، لأول وهلة وهو الشيء الباقي معه إذا رحل عنها، وهو ما يظل في وجدان أبنائها إذا رحلوا عنها إلي حين، وهذا هو الشاعر الأندلس الأشهر "أبو الصلت أُمية بن عبد العزيز ابن أبي الصلت الإشبيلي الذي عاش من العمر ستين عاماً قضى منها عشرين في مصر وفي الإسكندرية علي وجه الخصوص حتى أصبح إماماً في فنون العلم فأتقن علوم الفلسفة والطب، والتلحين"(١)

نجده يقف أمام النيل عند وصوله إلي القاهرة واصفاً حاله من الزيادة والنقصان، فهو في حالة فيضانه محملاً بالطمي المشوب بالحمرة يحكي لون الورد إذ يقول:

ولله مجرى النيل منها إذا شر البلاء خصومة الأنذال
إذا زاد يحكي الورد لوناً وإن حكي ماؤه لوناً ولم يحكه مرَّاً

والحديث عن أحمرار النيل وتغير لونه كثير عند الشعراء.

---

(٢) نفع الطيب جـ١، صـ ٣٧، جـ١ صـ٤٩٧.

والنيل جنة الخلد فهو جزء من طبيعة مصر يبهر به من يراه بل يرقيه في جميع أطواره نجد ابن جابر الأندلس(١) يقول:

مازلت أسند مـــن محاســـن خبراً صحيحاً ليس بـــالمقطوع

كـــم مرســـل مـــن نيلهـــا ومدبجٍ من هضـــبها المرفـــوع

ومن الواضح أنه يستخدم مصلحات علم تخريج الحديث مـــن مثل الخبر الصحيح، والمقطـــوع، والمرســـل والمسلســـل والمـــدبج والمرفوع في تورية تضم كل هذه المصطلحات.

وكذلك رسم ابن ناهض صورة فنية كاملة لمصر التي صـــارت فـــي عينيه جنة إذ يقول:

شـــــاطي مصـــــر جنـــــة خبراً صحيحاً ليس بـــالمقطوع

لاســـيما مـــذ زخرفـــت بنبلهـــــــا المطـــــــرد(٢)

وقال القاضي الفاضل مخاطباً النيل علي سبيل التجريد:

بالله قل للنيل عنِّـــى إننـــي لم أشف من ماء الفرات عليلا

وسل الفؤاد فإنه لي شـــاهد إن كان طرفي بالبكـــاء بخـــيلاً

---

(٣) **ابن جابر الأندلس** هو محمد بن أحمد بن عل بن جابر الأندلس الأعمى صاحب بديعة العميان، له شرح علي ألفية بن مالك، وآخر علي ألفية بن معطي.

(١) النفع طـ ٣ صـ ٣٥ انظر الترجمة في الدرر الكامنة جـ ٣ صـ ٣٣٩ وغاية النهاية جـ٢ صـ ٦٠.

وقال آخر يُشبّه النيل بحالة في الفيضان والخفوق يقول:

انظـــر إلـــي النيـــل الـــذي ظهـــرت بـــه آيـــات ربـــى

فكأنـــــه فـــــى فيضـــــه دمعى وفـــي الخفقـــان قلبـــي

والشاعر الآخر يجعل من النيل ذا فهم له عقل ولـــب يـــدرك بهما حاجة الناس إليه فيجود عليهم بمائه وينحسر عند عدم الحاجة إليه يصور ذلك فيقول:

كأنَّ النيـــل ذو فهـــم ولـــبِّ لما يبدوا لعـــين النـــاس منـــه

فيأتي حين حـــاجتهم إليـــه ويمضي حين يستغنون عنه(١)

ولم يتوقف وصفهم عند النيل فقط بـــل وصـــفوا الفســـطاط والقاهرة وجزيرة الروضة ومما قاله أبو الفتح بن قادوس في وصف الجزيرة قوله:

أرى سرج الجزيرة من بعيد كأحداق تغـــازل فـــي المغـــازل

كأن مجرة الجوزاء خَطـــتْ وأثبتت المنازل في المنـــازل(٢)

ومن الشعراء العرب الذين وصفوا مصر وكان وصفهم لهـــا بمثابة الراصد لمفاتن هذه الساحرة العامرة بخيرها وأهلها من هؤلاء الشاعر العظيم "البهاء زهير واصفاً مصر وأرضها ونيلها إذ يقول:

---

(٢) انظر نفع الطيب طـ ١ صـ ٣٦ : ٣٩.
(٣) نفع الطيب ج،٢ صـ ٣٤٣ .

سقى وادياً بـــين العـــريش من الغيث هطَّال الشآبيب هتان
وحيِّ النسيم الرطب عنيِّ إي هنالك أوطان إذا قيـــل أوطـــان
بلاد متى جئتها جئت جنـــة لعينيك منهـــا كـــل مـــا شـــئت
فيا ســـاكني مصـــر تـــراكم بـــأني مـــالي عـــنكم الـــدهر
وما فـــي فـــؤادي موضـــع ومن أين فيه وهـــو بالشـــوق
عسى الله يطوي شُقَّة البعد فتهدأ أحشـــاء وترقـــأ أجفـــان
عليَّ لذاك اليوم صوم نذرته وعندي علـــي رأى التصـــوف

وهاك نجيب الحداد يمدح مصر والمصريين إذ يقول:

يا أرض مصر تحية وســـلام وسقاك من صوب الغمام رُكـــام
بل أنت غانية عـــن المطـــر يهمي فإن النيـــل فيـــك غمـــامُ
نهر تبارك مـــاؤه فتكـــاد أن تمحي بطهـــر مياهـــه الآثـــامْ
ويكاد لورشف العليل زلالـــه يشفي العليلُ وتـــذهب الأســـقْام
يحيي البلاد بمائـــه فكانـــه ـــروح، التي تحيا بها الأجسام
إن شابَهُ كدر ففـــى أكـــداره صفو وفي فيضـــانه إنعـــام(٢)

وللشاعر الهراوي قصيدة بعنوان بلادي يقول فيها:

بلادي وأنـــت قـــرة عينـــي طبت نفساً علي الزمان وعينـــا

---

(٤) ديوان البهاء زهير – تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – محي طاهر الجبلاوي دار المعارف ط٢ صـــ ٦٤-٦٥.
(١) المنتخب من أدب العرب.

ستفوزين رغم أنف الليـــالي عجَّل الدهر بـــالمنى أو تـــأنَّى
نحن قوم لنا الفخار قـــديماً كم رفعنا من الحضـــارة ركنـــاً
لا نطيق الجمـــود والـــدهر حولنا بالحياة يُســـري ويُمنـــي
فيك تفني الشعوب يا مصـــر شعبك الحي خالد لـــيس يفنـــي
حفر الـــدهر للمالـــك قبـــراً وبنـــي الله للكنانـــة حصـــناً
إن يكن للخلـــود أم فمصـــر هي أم الخلود حساً ومعنـــي(١)

والشاعر محمود غنيم يتحدث عن ريف مصر تحدث العاشق لطبيعته وسحرة وجماله إذ يقول:

عشـــقوا الجمـــال الزائـــف وعشقت فيك جمالك الموهوبـــا
قدّسْتُ فيـــك مـــن الطبيعـــة أنعم بشمسك مشرقاً وغروبـــاً
ولقـــد ذكرتـــك مـــا ذكـــرت وتمائمي طوبي لعهدك طـــوبي
أحببت فيك الثابتين عقائـــداً والطـــاهرين ســـرائراً وقلوبـــاً
كستْ الطبيعةُ وجه أرضـــك وحبت نسيمك إذ تضوع طيبـــا
بُسط تظللها الغصون فأينما يممتَ خلت ســـرداقاً منصـــوبا
مالت علي الماء الغصـــون أمٌّ تقبـــل طفلهـــا المحبوبـــا
وبدا النخيل غصونه فيروزج يحملن مـــن صـــافي العقيـــق

(٢) المنتخب من أدب العرب.
(١) ديوان صرخة في واد – للشاعر محمود غنيم صـ ١٠

ومن شعراء الشام الشاعر ((إلياس قنصل))

يتحدث عن مصر وأمجادها وعلمائها في كل علم وفن فيقول:

يا مصر يـــا أم الحضـــارات مَهَدَتْ ســـبيل الحـــق للأفهـــام

أنت التـــي نطـــق الجمـــاد من غير مـــا عِـــيٍّ ولا إبهـــام

في أي عصـــر لـــم تكـــوني من كـــل نائبـــةٍ لكـــل مضـــام

لجأ المسيح إليك فاتضعتْ له بعد الهيـــاج عواصـــف الأيـــام

وأتاك أعلام البيان فـــأُمِنوا من شِرَّة الحكَّـــام والأحكـــام(١)

ومن الشعراء الذين هاموا بحب مصر وعشقوا كل شيء فيها واستعذبوا العذاب في سبيلها وسبيل حريتها وسلامة أراضيها أميـــر الشعراء.

أحمد شوقي أليس هو القائل في سينيته والتي قالها في المنفي والتي مطلعها:

صنت نفسي عمـــا يـــدنس وترفعت عن جدا كـــل جـــبس

يقول:

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفســـي

(١) المنتخب من أدب العرب.

يقول شوقي في ميميته:

أحبك مصر من أعماق قلبي وحبك في صـــميم القلـــب نـــام

سيجمعني بك التاريخ يومـــاً إذا ظهر الكـــرام علـــي اللئـــام

لأجلك رحت بالـــدنيا شـــقيا أصدَّ الوجـــه والـــدنيا أمـــامي

وأنظر جنة جمعت ذئاباً فيصرفني الإباء عـــن الزحـــام

وهبتك غير هيـــاب يراعـــا أشد علي العدو من الحسام(١)

وكما يقول أحد الباحثين ((أن وطنيته كانت هي الباعث علي نفيه من مصر، لأن المحتلين أيقنوا خطورة شعره في التأليب عليهم والتنفير منهم، فأميره مبعد عن ملكه ومصر كلها بَرِمَة بقيود الحماية وتركيا تحارب الإنجليز وشوقي شاعر الأمير وصفيه، وشعره يـــوقظ الغفلى، ويشدو به الصبيه والكهول، ثم كان الإنجليز علي ثقـــة مـــن عدائه لهم، واشتراكه في زعزعة الاحتلال فأمروا بنفيه عن مصـــر سنة ١٩١٥م فاختار الأندلس وظل بها أربـــع ســـنوات إلـــي ســـنة ١٩١٩م فبرّح به ألم النفي وألم الغربة، وألم الحنين إلي مصر)) (٢) ولذلك أبدع قصائد في منفاه كانت غرراً في شعر الوطنية وبـــراهين قوية تدل علي مدى وطنيته وحبه لمصر.

ومن هذه القصائد قصيدته التي كان يناجي بها الطائر ومطلعها:

---

(١) الشوقيات.

(٢) وطنية شوقى، احمد الحوفى، صـ١١١-١١٢.

يا نائح الطلع أشباه عوادينا نشجي لواديك أم نأسى لوادينا

يقول فيها:

لكن مصر وإن أغْضَت علي عين من الخلد بالكافور تسقينا

كأم موسي علـــي اســـم الله وباسمه ذهبت في اليم تلقينـــا

وأمير الشعراء قد استولى علي قلبه حب مصر فمـــا القلـــب عنها بسال ولا جرحه بسبب حبه لها بمندمل

إذ يقول:

وسلا مصر: هل سلا القلـــب أو أسا جرحه الزمان المؤسي

كلما مـــرت الليـــالي عليـــه رقَّ والعهد في الليالي تقسَّـــي

مستطار إذا البـــواخر رنَّـــت أول الليل أو عوت بعد جـــرس

راهب في الضـــلوع للســـفن كلمـــا ثـــرن شـــاعهنّ بـــنقس

نفسي مرجل وقلبي شـــراع بهما فـــي الضـــلوع ســـيري

واجعلـــي وجهـــك (الفنـــار) ك يدَ (الثغر) بين رمل ومكـــس

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفســـي

شهد الله لم يغب عن جفوني شخُصُه ساعةً ولك يخل حسي

وإنه ليقرن حبه لمصر بحبه لأمـــه، فهـــو بالأنـــدلس ســـنة ١٩١٨م يعلل نفسه بالعودة إلي وطنه ولقاء آله بعد إعلان الهدنـــة

لكنه يهدهد نفسه بهذا الأمل حتى بلغه نعي أمه فرثاها بقصيدة حارة لاعجه، وجاء في رثائه أنه نزل بالأندلس جنة الـدنيا فمـا أحـس بجمالها، لأن لبه معنًّى بأمه ومتيم بوطنه ومقسم في الحب بينهما.

يقول:

نزلتُ رُبـا الـدنيا وجنـات فما وجَدَتْ نفسـي لأنهارهـا
فما برحت مصر من خاطري ولا أنتِ في ذي الدار زايلت لي
إذا جنى الليل اهتززت إليكما فجنحاً إلي سُعْدَى وجنحاً إلـي

(وعندما عاد شوقي إلي الوطن في بداية سنة ١٩٢٠م نراه يفرح فرحاً شديداً بهذه العودة ويصور ذلك بأنه كالشيخ الـذي عـاد إليه شبابه ويجعل من مصر قبلة له قبل البيت الحرام وإن كان فـي هذا غلو برر له أحد الباحثين بأنه معزوز لأن عاطفة الفرح جـاوزت به الحد) ونحن نرى أن هذا غير مقبول لا من الشاعر ولا من الباحث لأن للقول شعراً أو نثراً حيال الدين خطوط حمراء يجب ألا يتخطاها، وأخطأ كذلك عندما قرر أن يكون الوطن معبوداً كمـا أن الله معبـود وقال أن هذا لا يغضب الله وهذا غيـر مقبـول منـه لا شـكلاً ولا موضوعاً، لأن الله دعا إلي حب الوطن وليس إلي عبادته.

يقول شوقي

ويا وطني لقيتك بعد يــأس كأني قد لقيــت بــك الشــبابا

ولو أني دعيت لكنت دينــي عليــه أقابــل الحــتم المجايــا

أدير إليك قبل البيت وجهــي إذا فهــت الشــهادة والمتابــا

ويقول في الجزء الآخر:

وجهُ الكنانة لــيس بغضــب أن تجعلــوه كوجهــه معبــودا

ولَّوا إليــه فــي الــدروس وإذا فرغتم، فاعبدوه هجــودا

وإذا تركنا حب مصر عند شوقي فلنأخذ بطرف مما عبر بــه شاعر النيل حافظ إبراهيم عن حبه لمصر

وهو القائل:

لعمرك ما أرقْتُ لغير مصــر ومــالي دونهــا أمــل يــرام

ولشاعر النيل قصيدة بعنوان (مصر تتحدث عن نفسها)

وها هو حديثها علي لسان حبيبها حافظ إبراهيم يقول:

وقف الخلق ينظرون جميعــاً كيف أبني قواعد المجد وحدي

وبناة الأهــرام فــي ســالف ــر كفوني الكلام عند التحــدي

أنا تاج العلاء فــي مفــرِق ق ودارتــــه فرائــــد عقــــدي

أي شيء في الغرب قد بهـــر ... س ولـــم يكـــن منـــه عنـــدي

فترابي تبر ونهـــري فـــرات ... وسمائي مصـــقولة كالفرائـــد

أينما سِرْتَ جدول عند كـــرْمٍ ... عند زهـــر مـــدنَّرٍ عنـــد رنـــد

ورجالي لو أنصفوهم لسادوا ... من كهول ملء العيون ومـــرد

لو أصابوا لهم مجالاً لأبـــدوا ... معجزات الذكاء في كل قصـــد

إنهـــم كالظُّبـــا ألـــحَّ عليهـــا ... صدأ الدهر من ثـــواء وغمـــد

فإذا صيقل القضـــاء جلاهـــا ... كنُّ كالموت مالـــه مـــن مـــردِّ

أنا إن قـــدَّر الإلـــه ممـــاتي ... لا ترى الشرق يرفـــع الـــرأس

ما رماني رام وراح ســـليماً ... من قـــديمٍ عنايـــة الله جنـــدي

كم بغت دولة عليَّ وجـــارت ... ثم زالت وتلك عقبـــي التعـــدي

إنني حرة كســـرت قيـــودي ... رغـــم رُقبـــي العـــدا وقطَّعـــتُ

هذه بعض أبيات من قصيدة شاعر النيل حافظ إبراهيم الـــذي عدد فيها مواطن الفخار في مصر وإن كانت قليل من كثير، فها هـــي مصر في عيون بعض الشعراء جعلت من هذه المختـــارات تمهيـــداً لموضوع بحثي وعلي الله قصد السبيل.

(١) ديوان حافظ إبراهيم – دار العودة بيروت جـ٢ صـ ٨٩ – ٩٤.

فحب مصر متغلغل في قلب كل إنسان نشأ تحت سمائها ومشى فوق ترابها، ونهل من نيلها وأصاب من خيرها والشاعر أقدر علي تصوير هذا الحب من سواه.

وقد قال الجارم عن شوقي في رثائه إياه:

كان صبًّا بمصر كم هام شوقاً ... برباهـــا وبثهـــا أحزانـــه

هـــي بســـتانه فغـــرد فيـــه ... وحبـــا كـــل قلبـــه بســـتانه

يعشق النيل والخمائل تهتـــز ... بشـــطيه خضـــرة وَلَدَانـــه

يعشق النيل والجزيرة تغريه ... وقـــد لـــف حولهـــا أردانـــه

يعشق البحر والسفائن تهفو ... حولـــه كالحمـــائم الظمآنـــة

كل شيء بمصر يبهر عينيه ... جمـــالاً ويســـتثير حنانـــه

يقول الباحث ((وكأن الجارم يتحدث عن نفسه لا عن شوقي، فهو في شعره قد تغني بمصر ووصف نيلهـــا وبحرهـــا، وســـفائنها وبلادها، وديوانه ناطق بما قال عن القاهرة ورشـــيد والإســـكندرية وأسوان، وما امتدت قصائد الجارم في كثير منها إلا حين ينظر حوله إلي أثر من آثار مصر فيمعن في وصفه)) (١)

(١) علي الجارم شاعر العروبة – د. محمد رجب البيومي صـ ٨١-٨٢ .

مصر الفرعونية

آفاقها ومعالمها فى شعر الجارم

مصر هي المكان والمكانة، مصر هي قلب الأمـــة النـــابض، وركنها الآمن إليها الملاذ، وبها المستجار، هذا قدرها منذ أكثر مـــن سبعة آلاف عام، فلقد كانت مصر دولة ذات نظام دقيـــق وحضـــاري فأبناؤها دعاة التوحيد ((فهذا هو نبي الله إدريس وهو أحد أبناؤهـــا وهو المشار إليه في العهد القديم باسم "أخنوخ" هو أول من دعا إلي التوحيد، ثم جاء من بعده وسار علي دربه ابن مصر الثاني أخناتون، ومع الزمان يأتي إلي مصر نبي الله إبراهيم ويتزوج إحـــدى بناتهـــا هاجر التي رزقه الله منها "إسماعيل".

ويمضي الزمان بمصر فيفد إليها نبي الله يوسف عليه السلام ليكون أميناً علي خزائنها لعزيز مصر ويستخدم بعده أبـــاه يعقـــوب وبنيه، وقد تزوج منها وأنجب فيها، ثم يظهر في مصر أيضا نبـــي الله "موسي" عليه السلام ويكون له مع فرعون تـــاريخ عـــرض لـــه القرآن في أكثر من سورة ثم مرت العائلة المقدسة (الســـيدة مـــريم البتول والسيد المسيح عليهما السلام، ووجدا في مصـــر المحضـــن الآمن حماها وحمى المسيحية كلها من عسف الرومان).

وفي ختام الرحلة الودود المتعاطفة، والحامية الكبرى مع لمصر مع رسالات السماء، كان ظهور الإسلام في نهايتها هو مسك الختام الذي جاء به الرسول الخاتم محمد ﷺ (١)

وإذا رجعنا إلي الماضي البعيد حيث كان الحضارة المصرية حتى قبل عهد الأسرات الذي بدأ منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد ((فمصر تتميز بشكل الدولة من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، وكانت الزراعة أساس الحياة الاقتصادية، كما أن أهل مصر استعملوا في سنة ٤٢٤١ ق.م – تقويما ذا سنة شمسية يتكون من ٣٦٥ يوماً، ومع بداية عهد الأسرات الذي بدأ منذ ما قبل ٢٩٠ ق.م بدأ شكل الدولة يتحدد واستطاعت الأسرة الأولي والثانية أن توحد مصر العليا والسفلي تحت حكم الملك "مينا" الذي أطلق عليه موحد القطرين، وبدأت معالم النهضة البشرية، والحضارة الإنسانية تفرض نفسها وتضع أسس التطور الإنساني" (٢)

والجارم شاعر مصري أحب مصر أحب مصر بكل مالها من حضارات، وأحب كل من انتمي إليها وتربي علي أرضها وشرب من نيلها، وشكَّل مجدها وتاريخها ففي قصيدته التي تحمل عنوان (مصر) نراه يتحدث عن بعض ما حبا الله به مصر من هبات فتحدث أول ما

(٢) راجع في ذلك – فضائل مصر – دكتور إبراهيم أحمد العدوي مطبعة الأهرام – مصر صـ ٣-٤-٥.

(٣)مصر عبر الزمان – بهجت إبراهيم دسوقي طبعة روز اليوسف صـ٨.

تحدث عن خلودها بمجديها الطارف والتليد فهي ذات حضارة قديمة شهد بها كل العالم حتى يومنا هذا فهذه أهرامها وهذه معابدها وتلك فنونها وعلومها وهندستها ألم ترى تعامد الشمس علي قبر فرعونها يوم ميلاد إذن كل هذا ليس من باب الصدفة، وما أعظم علم التحنيط وما هذا إلا قليل من كثير لذلك وجدنا الجارم يقول:

صور الله فيك معني الخلود فابلغي ما أردته ثم زيدي
أنت يا مصر جنة الله في ض، وعين العلا ووا و الوجود
أنت أمُّ المْجدَينِ بين طريف يتحدى الوري وبين تليد
كم جديد عليه نبل قديمٍ وقديمٍ عليه حسن جديد(١)

ففي اللوحة التعبيرية السابقة يصور الجارم أنها خالدة فيخلع عليها صفة القدم وكأنها أقدم من التاريخ نفسه يتحقق هذا الخلود ببلوغها ما أرادت ويطلب منها المزيد فهي عطَّاؤها لا ينقطع وكذلك هي ولَّادة لا تهوم ولا يصيبها العَجَزُ فالدهر كان طفلاً وليداً يلعب بطوق الوليد وهي فتاة إذن هي أقدم من الدهر ومن التاريخ ذاته، وهي جنة الله في الأرض بما حباها به الله من طبيعة مكانية مكينة فهي من العلا عينه ومن الوجود واوه والحرفان توسطا كلتيهما فكأنها واسطة عقدهما وهي ذات مجدين أحدهما تليد قديم والآخر

(١) ديوان الجارم طبعة دار الشروق صـ ٢١.

طريف حديد بهما تتحدى كل الورى والخلائق، فمع قدم آثارها وحضارتها إلا أنها لبست ثوب الحداثة وهذا مناط الفخر والفخار.

قد رآك الدهرُ العُتُّي فتاةٌ وهو طفلُ يلهو بطْوق الوليد
شاب من حولك الزمان ومازالت كغصن الريحانة
أنت يا مصر بسمة في فتم ودمع الحنان فوق الخدود(١)

فالجارم يؤكد قدم مصر بحضارتها، وأن الزمان رآها وهو طفل وقد أدركه المشيب وهي لازالت كغصن الريحانة الغض النديّ، ومصر ليست جميلة فحسب بل هي مصدر الجمال حيث أنها بسمة في فم الجمال، وكذلك ليست ذات حنان فحسب بل هي دمع الحنان الذي يسيل فوق الخدود وهو خلاصة الحنان. ثم يعاود الحديث ليفصّل عناصر الجمال فيها فهي كالزهرة يحميها الشوك والشوك حولها هو مصدر عزتها، والقفر حولها هي الصحاري التي تكتنفها ومن حولك البحار تلثم ثغور مدنك وهي مصدر جمال لك أيضاً، والنيل أباك، وأنت بالنسبة لبنيك أصلي من الحب وأجمل من الأماني الحسان يصور ذلك فيقول:

أنت في القفر وردة حولها ك، وفي الشوك عِزَّةُ للورود
يلثم البحر منكِ طيب ثغور بين عذب اللِّمي وبين برود

(٢) ديوان الجارم طبعة دار الشروق صـ ٢١.

يا ابنة النيل أنت أحلي مـــن وأزهى من ضاحكات الوعود(١)

ثم يتحدث عن الحضارة المصرية القديمـــة وهـــي حضـــارة الفراعنة الذين ملكوا زمام العلوم في وقت كان الكون فيه غارق في ظلمة الجهل والتخلف، فكأن مصر هي السراج المنير الذي يهتدي به كل ضال وحائر وإن كان حاضرك مجيد فقد قرن بماض مجيد، حيث أن مجدك القديم تمثل في صخور من رسوم ونقوش تمثل مـــا كنـــت عليه من رقي وحضارة يصور الجازم ذلك فيقول:

قد حملت السراج للنـــاس، ن، غريق في ظلمـــة وخمـــود
لا نرى فيك غير عهد مجيد قرنتـــه العـــلا بعهـــد مجيـــد
وجهود تمثلتْ في صـــخور وصخور تشـــبهتْ بجهـــود(٢)

ولقد بلغت مصر في القديم شأناً وشأواً أبهر السماء وأعجـــز الطائر ذا الجناحين أن يصعد إليه، فهي صفحة من ذهب وفضة لمعت وأضاءت لكل العصور والعهود، فهي الدولة ذات المُلْك العظـــيم فقـــد توج ملكها "رمسيس" وحوله الجنود الأبطال من أهل مصـــر، مـــنهم المشاة ومنهم الركبان ومنهم حاملي السلاح ومنهم حاملي الأعلام في موكب مشهود يدل علي عظمة مصر بما فيها ومن فيها، وإلي جوار

(١) الديوان ط١ صـ ٢١.
(٢) الديوان ط١ صـ ٢١.

الجنود، نرى مواكب الكهان يدعون بالنصر وتهتف بالنشيد بعد النشيد، وإلي جوار هذا وذاك نجد الفن ماثلا في ضرب الدفوف والأعواد وتمايل الجميلات اختيالا وزهواً بمصر ومالها من حضارة لم يعرفها معاصروها إذ يقول:

عظمُ يبهر السماء، وشأوٍ ... عاق ذات الجناح دون الصعود
أنت يا مصر صفحة من ... لمعت بين سالفات العهود
أين "رمسيس" والكماة ... مشاة في الموكب المشهود
ملأ الأرض والسماء، فهذي ... بجنودٍ، وهذه ببنود
وجموع الكهان تهتف ... وتتلو النشيد إثر النشيد
وبناتٍ يَمِسْنَ اختيالاْ ... ويحيين بين دُفٍ وعود(١)

(١) الديوان ط١ صـ ٢٢.

معالم حضارة مصر الإسلامية عند الجارم:

وإذا كان الجارم قد أحبَّ مصر الفرعونية وتحدث عن أمجادها وآثارها وملوكها ونيلها فهو كذلك أحب مصر الإسلامية فلا هو متعصب للفراعنة ولا متعصب عليهم لأنه ابن مصر الوفي، وهو يتبع حديثه عن مصر الفرعونية بالحديث عن مصر الإسلامية في حب وإعزاز وافتخار إذ يقول أحد الباحثين: (وحب مصر الفرعونية يتلاقى في جنان الجارم مع حب مصر الإسلامية، لأن حبَّ الأجداد لا يمنع حبَّ الأحفاد، وذلك أمر بدهي لا يغفله غير الذين في قلوبهم مرض، إذ يشيدون بالفرعونية بغضاً للعربية ودعوة لتقطيع الوشائج بين تاريخ الأمة الواحد، وهؤلاء يكرهون الإسلام في أعماقهم ولا يستطيعون أن يفصحوا عما يكنون، كيلا يكونوا مهزأة الشعب وألهياته فيتسترون بحب الفرعونية وحدها، وقد ظهرت البغضاء من أفواههم وما تخفى نفوسهم أكبر، أما الجارم فقد سجل إعجابه بالعهد الحضاري في مصر الفرعونية مع ما سجل من أمجاد مصر الإسلامية جنباً إلي جنب حيث انتقل في سرده المتسلسل من العهد الأول إلي عهد عمرو بن العاص حين قدم مع دين ربه الحنيف ينشر لواء الحرية والتسامح والإخاء(١) .

---

(١) علي الجارم شاعر العروبة، دمتور محمد رجب البيومى، صـ ٨٢ - ٨٣.

يقول الجارم:

أين عمرو فتى العروبة ... أوفى مجاهد بالعقود
شمَّرِىُ يحطم السيف ... ويرمى الصنديد بالصنديد
لم يكن جيشه لدى الزحف ... قوة العزم صورت في جنود
قلة دكَّت الحصون وبثَّتْ ... رعدة الرعب في الخضم العديد
زُعر الموت أنهم لم يخافوه ... ولم يرهبوا لقاء الحديد
ينظرون الفردوس في ساحة ... الحرب فيستعجلون أجر الشهيد
صعدوا للعلا بريش نسور ... ومضوا للردي بعزم أسود
أينما ركزوا الرماح ترى ... ل، مقيماً في ظلها الممدود
وترى الملك أريحياً عليه ... نضرة من سماحة التوحيد
وترى العزم عابسا لوثوب ... وترى السيف ضاحكاً في الغمود
وترى العلم يلتقي بهدى ... علي منهج سوِىٍّ سديد
ملكوا الأرض لم يسيئوا إلي ... ولم يحكموه حكم العبيد
هم جدودي وأين مثل ... إن تصدى مفاخر بالجدود(١)

صورة المدينة المصرية في شعر الجارم

ونحن نعرف أن الجارم رشيدي لد في رشيد ونشأ بها وقد سجل لهذه المدينة ذكراً خالداً وشعراً نثراً حين كتب قصته البارعة

(٢) الديوان ط١ صـ ٢١.

(غادة رشيد) متحدثاً عن قطعة مؤثرة من تاريخها القريب، وشعراً حين نظم ثلاث قصائد مطولات تتحدث عن خواطره نحو أول بلدة مست ترابها قدمه، وحلّ الشباب بها تمائمه وهل ينسى الشاعر طفولته الهانئة في هذا البلد الجميل وقد نشرت جميعها في ديوانه طبعة دار الشروق إلا أن جامع الديوان لم يراع فيه الترتيب الزمني للقصائد حيث أن القصيدة الأولي في الديوان أنشأها الشاعر سنة ١٩٤١م، والثانية سنة ١٩٣٦م، والثالثة أنشأها الشاعرة سنة ١٩٣٩م، وقد رأيت من الخير العميم علي البحث أن أبدأ بالقصيدة الثالثة التي هي أقرب ما تكون إلي وصف هذه المدينة الساحرة الفاتنة وقد أنشأها بمناسبة افتتاح مصيف (رشيد) عام ١٩٣٩م.

والتي مطلعها:

أرشيد لا جرح ولا إيلام عاد الزمان وصحت الأحلام

والشاعر مبهور مفتون بجمال هذه المدينة التي تكسو أرضها خضرة مورقة مزهرة يحوطها النيل العظيم ويزينها البحر الكبير أشجارها عاليات باسقات وزروعها مثمرات وقد جعل من نخلها عاشق لنخل العراق إذ يقو في قصيدته بغداد

والتي مطلعها

بغداد يا بلد الرشيد ومنارة المهد التليد

إذ يقول:

بـــين القلـــوب تشـــوف كتشـــوف الصـــب العميـــد

حتـــى يكـــاد يحـــب نخلـــك نخـــلُ أهلـــي فـــي رشـــيد

والشاعر لا أقول محب لهذه المدينة بل هو لها عاشق يعشق كل ما فيها ومن فيها فهو يعشق فيها طبيعتها الساحرة الباهرة بـل يعشقها لأنها ألهمته الشعر منذ نعومة أظفاره ففي أرضها نبت شعره ونما عوده وبسق وأخرج شطأه حتى أعجب القراء والنقاد.

نراه يصور ذلك فيقول:

أرشيد لا جـرح ولا إيـلام عاد الزمان وصـحت الأحـلام

وتمثلت فيـك الحيـاة فتيـة من بعد ما عبثت بـك الأيـام

يا زينة بين الثغـور وفتنـة سَحَرَ الممالك ثغـرك البسَّـام

يا وردة بين الرمال نضـيرة تزهى بها الأغصان والأكمـام

يا درة البحر التي بوميضها ضحك الصباح وأشرق الإظلام

يا دوحـة نبـت القـربض فأصـولها وفروعهـا إلهـام

يا روضة فتن العيون جمالها وتحـدثت بأريجهـا الأنسـام

يا همسة الأمل الوسيم رُواؤة لو كان للأمـل الوسـيم كـلام

يا صحوة المجد القديم تحدثي طال الزمان بنا ونحـن نيـام

يا طلعة للحسن شاع ضياؤها وإنجاب عنهـا البحـر وهـو

---

(١) الديوان جـ٢، صـ٣١٢

وبعد أخذ يتحَسَّر علي أيام شبابه وألهياته وذكرياته في رشيد فله في كل موضع منها موقف وذكرى، فقد كان فيها يلهو كما تلهو الطيور وتشدو مغردة، ولهو الطفولة يعد عنده خير أيامه وإن كان هذا عند معظم الأطفال إلا من نغصت عليه طفولته بإعاقة أوْ يُتْم أو فقر

يقول الجارم:

أرشيد يا بلدي ويا ملهي ... بيني وبين مدى الصِّبا أعوام
أيام لي في كل سرحٍ نَعْمةٌ ... وبكل ركنٍ وقفةٌ ولمام
أيام لا أَمسى يجرُّ وراءه ... أسفاً، ولا يومي علي جهام
ألهو كما تلهوا الطيور ... شدوُ وَرَفُّ جناحها أنغام
متنقلات بين أزهار الرُّبا ... الجو متنُ والنسيم زمام
ومطالبي لم تَعْدُ مدَّةَ ساعدي ... بُعداً فما استعصى عليَّ مرام
لهو الطفولة خير أيام الفتي ... إن الحياة وكدحها أوهام(١)

وفي اللوحة التالية نراه يتحدث عن رشيد وعن دواعي ودوافع حبه لها حيث قضى فيها صباه وفيها الأهل من الأصهار والأخوال والأعمام ثم أخذ يتحدث عن معشوقته النخلة معدداً ذكرياته

(١) الديوان جـ٢، صـ٣٠٧

معها حيث استظل بظلها وطعم من ثمارها ثم يشبهها بالأم الرحيمة الحنونة حين تهز وليدها وتهدهد عليه فهكذا كانت تفعل به النخلة.

يصور ذلك فيقول:

أرشيد فيك لبانتي وصبابتي ... والصهر والأخوال والأعمام

لمست حنَّو الحبِّ فيك ... ورأيت فيك الدهر وهو غلام

ونشأت في ظل النخيل ... شوق إلي أفيائها وغرام

أرختْ شعوراً للنسيم كأنما ... أظلالها تحت الغمام غمام

تهفو ويمنعها الحياء فتنثني ... كالغيد روَّع سربَها اللوَّام

إنّا كبرنا يا نخل وحُّبنا ... بين الجوانح شعلة وضرام

كم طوقت منك القدود ... ولكم شفاني من جناك طعام

ولكم هززت فتاك حين حملته ... كالأم تُلْهي الطفل حين ينام

إن يُقصني عنك الزمانُ ... فالحب عهد بيننا وزمام

ميسي كأيام الطفولة وارفلي ... فالجو صَفْو، والنعيم جمام

غنَّي لك القلمُ الذي أرهفته ... أرَأيتِ كيف تغرد الأقلام(١)

وبعد هذه اللوحة التي صور فيها الجارم ذكرياته مع مدينته المحببة إلي نفسه والتي يقدرها كلُّ ريفي عاش في أحضان ريف مصر الساحر بين الخضرة والجداول مع النسيم الصافي والشجر

(١) الديوان، جـ٢، صـ٣٠٩.

الوريف، بعد ذلك نرى الجارم وكأنه يطمئن رشيد علي غرسها ووليدها الذي ملأ الدنيا شعره فاعتلى منابرها وهز محافلها وصدح في آفاق العالم العربي الرحيب حتى أن الوجود بأسرة أصغى له وطأطأ رأسه إعجاباً واعظاماً لشعره.

إذ يقول:

غنَّى لك القَلَمُ الذي أرهفته ... أرأيت كيف تغرد الأقلام
هذا وليدُك جاء يُنْشِدُ شعره ... ما كل ما تحوى الخيوط نظام
أصغى له الوادي، وغَنَّتْ ... بغدادُ، واهتزتْ إليه الشام
إن قال مال له الوجود ... ورنَتْ له الأسماع والأفهام
ملك العَصِيَّ من القريض ... طوعاً فما استعصى عليه

وبعد ذلك نراه يتحدث عن رشيد بمساجدها ومآذنها ومجدها القديم ثم يتحدث بالنصيحة لكل بني البشر حيث أن النعيم لا يبقى كذلك والشقاء لا يدوم، ولا يبقي ولا يدوم إلا وجه الله الكريم لذلك نراه يشفع النصيحة بأخرى.

إذ يقول لابد لكل إنسان أن يرضى بما قسم الله له يقول:

أرشيد مجدك في القديم ... بيضاء لا لبس ولا إبهام
ملأت مآذنك السماء شوامخاً ... بين السحاب كأنها أعلام

---

(١) الديوان جـ٢، صـ٣٠٩.

كم شاهدتْ قوماً زهت أيامهم حينا، وجـاءت بعـدهم أقـوام
سبحان من لا مجد إلا مجده نفني ويبقـى الواحـد العـلاَّم
خذ من زمانك ما اسـتطعت أخذت يداك مـن الزمـان دوام
وارض الحيـاة نعيمهـا أو نعمى الحياة وبؤسها أقسام(١)

وفي اللوحة التالية نراه يتحدث عن رشيد الجملية المتجملة بالصبر علي النوازل ولأوائها، ولصبرها انزاحت عنها النـوازل والمصـائب وعادت فتية رشيقة ينتظر منها العزم والإقدام فمصيفها جميل تتسابق إليه الوفود حتى أن الزحام يتلوه زحام، والذي حملهـم علـي هـذا التسابق والزحام إنما هو ما منحه الله إياها من طبيعة ساحرة ففيهـا النيل يحوطه البحر وتلفها الأشجار.

يصور ذلك فيقول:

أرشيد لم نسمع لصدرك أنـةً للنازلات الدهم وهـي جسـام
أجملت صبراً للحوادث فانثنتْ إن الكرام علي الخطوب كـرام
اليوم جددت الشباب فأقـدمي معني الشباب العزم والإقـدام
سَعَتْ الوفود إلـي مصـيفك يتلو الزحام إلي سـناه زحـام
النيل والبحر الخضَمُّ يحوطـه والباسقات علي الطريق قيـام
والتوت والصفصاف يهتـف فتـردد الكثبـان والآكـام

(١) الديوان ، جـ٢، صـ٣١٠.

والزهر في جيد الرياض قلائد والنهر في خصر الرياض حزام
والموج كالخيل الجوامح وانحلَّ عنها مِقْوَد ولجام
تجرى السفائن فوقه وكأنها والريح تدفع بالشراع حَمَامُ
ومناظر يعيا القريض بوصفها ويَضِلُّ في ألوانها الرسام
والناس بين ممازح ومداعب والأنس حتمُ والسرور لزام
من شاء في ظل السعادة فهنا تشاد صروحها وتقام
أورامَ نسيان الهموم فها هنا تنسى الهموم وتذهب الآلام(١)

ولا يتوقف حديث الجارم عن رشيد عن هذه القصيدة البديعة بل وكما أسلفنا لقد تناولها في قصائد ثلاث أولاها ما قد بدأنا به والثانية حسب الأسبقية في الإبداع والنظم حيث أنشأها عام ١٩٤١.

والتي مطلعها:

جددي يا رشيد للحب عهداً حسبنا حسبنا مطالاً وصدا
جددي يا مدينة السحر أحلا ماً، وعيشاً طلق الأسارير

نراه في هذه القصيدة يتوجه بالحديث إلي مدينته الفاضلة التي هي عنده جنة الخلد، وهي المدينة التي أطلق عليها وردة الحسن لذلك زهي الحسن وافتخر، وودت الخدود لو أنهن ورداً

(١) الديوان، جـ٢، صـ٣١٢
(٢) الديوان جـ١، صـ٤٩

وأعاليها من الرمال ليست رمالاً بل هي تبر وأحجار كريمة والنيل يجري من تحتها شهدُ ثم أخذ يصف نخلها الظليل وثمره وجماله بل يشبهه بالعزاري التي تقلدت بعوامل الحسن والجمال.

ثم يتحدث عن ما أصابها وأصاب أهلها من (مرض الفيل) يقول:

أرشيد وأنت جنة خلد ... لو أتاح الإله في الأرض خلداً
حين سموك "وردة" زُهيَ ... ـن وودَّ الخُدود لو كنّ وردا
توجت رأسك الرمال بتبر ... وجرى النيل تحت رجليك شهداً
وأحاطت بك الخمائل زُهْراً ... كلُّ قدٍ فيها يعانق قدّا
والنخيل النخيل أرخت شعوراً ... مرسلات ومدت الظل مدا
كالعزارى يدنو بها الشوق ... ثم تنأى مخافة اللّوم بعدا
حول أجيادها عقود عقيق ... ونُضار صفاؤه ليس يصدا
يا بنة اليمِّ لا تراعى فإني ... قد رأيت الأمور جزراً ومدّا(١)

وبعد ذلك نراه يتحدث عن عزمها وصلابتها أمام الأحداث والمصائب ويقول لها يكفيك ماضيك الأغر فقد كانت الليالي جوار لك والزمان لك عبداً، لذا فلا يأس ولا قنوط، فقد يصفو الزمان مرة أخرى، ويتبدل وعيده وعدا، وحبي لك مدعوم بما حويت من أهلي وذكريات شبابي وطفولتي، لذا إن هبت الريح عليك أصابت فؤادي

(١) الديوان، جـ١، صـ٥٠

العواصف لما أصابك، فأنا من ترابك النقي وشعري من وحي قدسك الذكي.

يقول مصوراً ذلك:

قد يعود الزمان صفواً كما كا ... ن ويُمْسى وعيده المُّر وعدا
كنت مذ كنت والليالي ... ك وكان الزمان حولك عبدا
كلما هامت الظنون ... ك رأت عزمة وأبصرن
بك أهلي، وفيك ملهى شبابي ... ولكَمْ فيك لي مراح ومغدي
لو أصابتك مسةُ الريح ثارت ... بفؤادي عواصف ليس تهدي
أنا من ترابك النقي وشعري ... نفحات من وحي قدسك تُهْدِي
كنت أشدو به مع الناس طفلاً ... فتسامى فصرتُ في الناس فرداً
من رزايا النبوغ أنك لا ... ق أنسياً، ولا ترى لك ندَّا
قد جزيناك بالحنان حناناً ... وجزينا عن خالص الود وداً
ليت لي بعد عودتي فيك قبراً ... مثلما كنت منبتاً لي ومهدا(١)

هكذا نرى الشاعر محباً لوطنه الصغير الذي هو جزء من وطنه الكبير مصر التي لا ينساها في حله أو ترحاله ذاكراً لها في كل آونة وحتى في حديثه عن الأقطار الأخرى نجده لا ينساها بل يشبه جمال تلك الأقطار بجمال مصر وجمال مصر لا محالة عنده أغلب.

---

(١) الديوان جـ١، صـ٥١.

ومن المدن المصرية التي ذكرها الجارم في ديوانه مدينة الإسكندرية والتي أطلق عليها عروس الشرق.

وإن كان يطلق عليها الآن عروس البحر الأبيض المتوسط، وكان حديثه عنها عندما انعقد بها المؤتمر الطبي سنة ١٩٤٣م إذ وصف موقعها الرائع وجوها الفاتن، ورياضها الضاحكة، وألم بشذور من تاريخها الخالد وكانت الحرب العالمية الثانية تنذر الثغر بالغارات الداهمة فلم ينس أن يواسي المدينة بمشاركته الوجدانية، وأن يصبَّ لعنته علي الباغين المعتدين في قوة عاطفة ألهبت الأكف بالتصفيق.

يقول الجارم:

بدت أعلامها فهفا وهاما ... سلاماً درة الوادي سلام
بعثنا بالتحية خفق قلب ... يطير إليك شوقاً واضطراما
تحيات إذا رفَّتْ أثارتْ ... أريج المسك أو ريح الخزامي
نظمنا لؤلؤ الفردوس فيها ... وسميناه تضليلا كلاما(١)

وبعد أن قدم التحية لهذه المدينة الأثيرة العزيزة علي نفس كل مصري بل علي كل عربي ولا أكون مغاليا إن قلت بل عزيزة علي نفس كل من وطئ أرضها واستظل بسمائها وعبق نسيمها ومتَّع ناظريه بجمال بحرها فهي درة الوادي، وريحها أريج المسك، أو ريح

(١) الديوان جـ١، صـ٢٧١.

الخزامي وهو نبت زهرة أطيب الأزهار ويستعمل كدواء لـــذلك نظـــم الجارم لها لؤلؤ الفردوس شعراً وإن كان كلاماً، ثم بعد ذلك يتوجـــه بالحديث إلي هذه المدينة العزيزة فيقول:

عروس الشرق مهرك غال لا يطاوله مهر لأن مهرك لا يقدر بـــثمن فطبيعتها الساحرة لا تضاهيها طبيعة فلقد بهرت العالم بأثرة وعشقك الألوان والآخرون، ثم أخذ يفصل في وصفه كل حَيً أو مكـــان منهـــا علي حده (فحي المكس) الشهير بالإسكندرية مشرق البسمات واضح وحي الرمل الأشهر بها كأنه جنة طابت مقاماً ومسكناً وكـــذلك حـــي النزهة بالإسكندرية ذلك الحي البديع ما أجمله اتساقاً وانسجاماً.

يقول:

عروس الشرق دونـــك كـــلَّ ... وأين لمثل مهـــرك أن يســـاما

فجوهرك ثغرك الفتان فـــردُ ... تأبّى أن يـــرى فيـــه انقســـاما

بهرت بنـــي الزمـــان حُلـــيَّ ... ودلهـــت الأواخـــر والقـــدامى

"فمكسك" مشرق البســـمات ... ورملـــك جنـــة طابـــت مقامـــا

ترامى الموج فوق ثراه صباً ... وكم صبٍّ تمنـــى لـــو ترامـــى

ونزهتك البديعة ما أُحَيْلـــي ... وما أبهـــى اتســـاقاً وانســـجاماً

إذا انتثرت أزاهرهـــا نثـــارا ... جمعن الحسن فانتظم انتظاما(١)

---

(١) الديوان جـ١، صـ٢٧١

ثم يقول:

إنها عتيقة عريقة حتى أن التاريخ نشأ طفلاً بين يديها فهي أقدم وأعرق من التاريخ، والبحر حولها منذ العصور القديمة ملتف حولها فهي كالسيف وهو لها غمد، وكل غاز قصدك من خلاله صار رميما وكلٌّ فلك أو سفينة أمست حطاماً وأنت مدينة العلم والنور منذ القدم، بل أنت الدعامة التي أسست عليها العلوم ومنذ فجر الزمان كنت الفجر الذي نبه الغافلين، ومع ذلك فأنت صاحبة عزم لا يلين فقد أصابتك النوازل التي لو نزلت علي جبلي (رضوي) أو (الشمام) لما أبقت منهما شيئاً فكم شنوا عليك الحرب، وأمطروك بوابل من النيران والقذائف حتى أنهم لم يرحموا أماً ولا طفلاً أو شيخاً كبيراً ومع ذلك كلما ازدادت الخطوب كلما ازددت صبراً وعزماً.

يقول:

جرى التاريخ بين يديك طفلاً وشمس الأفق لم تعْدُ الفطاما
وصال البحرُ حولك منذ مينا عظيماً يدفع الكُـرَبَ العظاما
يحوط حماك أبيض أحوذياً كما جردتِ من غمد حساما
فكم غازٍ به أمسى رميما وكم فُلْكٍ به أمست حطاما
يمدُّ يديه نحوك في حنان ويغمرك اعتناقاً واستلاما

ويشدو في مسامعك الأغاني بلحن علَّم السجع الحماما

بعثت النور من زمن تولَّى وكنت لنهضة العلم الدَّعاما

وفي فجر الزمان طلعتَ فجراً علي الدنيا فأيقظت النياما

دهتك نوازل لوزُرْنَ لما أبقين (رضوى) أو (شماما)

فكم بعثوا علي ظمأ غماماً لئيم البرق قد حجم الغماما

أبابيلا نشأن ملعّناتٍ تسوق أمامها الموت الزؤاما

وأسراب الجحيم محلقاتٍ إذا ما حوَّمتْ قذفتْ ضراما

فلا أماً تركن ولا رضيعاً ولا شيخاً رحمنَ ولا غلاما

وخلفك رابضا جيش لهامُ يصول مناجزاً جيشاً لُهَامَا

إلي (العلمين) أبدى ناجذيه وزمجر غاضباً وسطَا وحاما

وهوَّل ما يهول واستطارت بروق تنشر النبأ الجُساما

فما أطلقتِ صيحةَ مستجير ولا شردت عن عين مناما

تحديت الخطوبَ تزيد هولاً فتزدادين صبرا واعتزاما

إذا عصفت بجوِّك عابساتٍ ملأت الجو هزءاً وابتساماً(١)

ونراه في إحدى مقطوعاته من القصيدة يتذكر معها ذكريات صباه، متحسراً علي هذا الصبا، ثم يقدم العذر لمعشوقته

---

(١) الديوان جـ١، صـ٢٧٤.

(الإسكندرية) التي وصلها بعد هجر وزارها بعد قطيعه إلا أنها غير متعمدة ولا مقصودة لأنه حافظ لزمامها ذاكراً لها غير ناسياً إياها.

يقول:

أبنت البحر والذكرى شجون إذا لمست فؤاداً مستهاما
ذكرت صباي فيك، وأين صباي؟ إلام أنشُده إلاما؟
فعذراً إن وصلتك بعد هجر وما هَجَرَ الذي حفظ الزماما
فهل تدري النوى أنَّا التقينا كما ضمَّ الهوى قُبلاً تؤاما
وأنَّا بين عُتْبٍ واشتياقاً نناغى الحب رشْفَاً والتزاما(١)

والجارم محب لمصر بكل ربوعها وأرجائها ومدنها وكما تغني لرشيد وتغني للإسكندرية نراه يترنم بمدينة الفيوم الساحرة ذات الطبيعة البارة وإن كان موجزاً إلا أنه أوجز فبلغ الغاية وصورها فأبدع التصوير، وكان قدْ زارها حينما كان والده، قاضيا للمحكمة الشرعية بها فبهر بما رآه فيوضات الله علي تلك المدينة من جمال وكذلك ما اتصف به أهلها من وفاء، فجاءت هذه الأبيات معبرة عما يجيش في نفسه من مشاعر حيال هذه المدينة وكان نظمه لهذه الأبيات سنة ١٨٩٨م إذ يقول:

ساكني الفيوم إني ذاكر عَهْدُكُم، والذكر في البعد وفاء

(١) الديوان جـ١، صـ ٢٧٦

كم شدا شعري علي دوحتكم أي شـــعر غـــردِ ؟ أي عنـــاء؟
بلدُ كـــالزهر حســـناً وشـــذا بـــين أظـــلال وأنســـام ومـــاء
مثل خدِّ البكر فـــي تلوينـــه ترتدي في كـــلِّ حـــين بـــرداء
فهي بالأمس سواها في غدٍ وهي في الصبح ســـواها فـــي

الجارم وجمال مصر في ظلال العروبة والإسلام

وما نسى الجارم مصر لا في حله ولا ترحاله ولا في مدحه ولا غيره فهو إن تحدث لغير مصر لا ينسى في حديثه مصر، بل يجعل منهـــا الأصل وغيرها عنها فرع.

فلو أننا أردنا دليلاً علي ذلك لوجدناه في قصـــيدته والتـــي بعنـــوان (العروبة) والتي مطلعها:

لبنان روض الهوى والفـــن الأرض مسك وهمـــس الـــدوح

فنراه في هذه القصيدة مثيراً لأسئلة وهذه الأسئلة ما هي إلا زفرة مكظوم من قلب مكلوم علي ماض تولى هو عليه عزيـــز فيـــه ذكريات شبابه مع جميلات لبنان، نراه متحسراً علي أيـــام الشـــباب متمنياً عودتها مع لذة له كانت فيها حيث تغير كل ذي طعم ولـــونٍ، وقلَّ بشاشة الوجه المليح لذلك نراه ينوح بكسب دمع وأجفان مسهدة قروح، وبعد ذلك يعمد إلي الغزل والتغزل بفاتنات لبنان واصفاً إياهن

---

(١) الديوان، جـ٢، صـ٥٣٣.

بما يخلع عليهن صفات الحور العين ثم أخذ يتحدث عن دولة العرب وسلطانها الذي خضعت له الأمم في شتى ربوع المعمورة فكم حطمت بصوارمها صولجانات وتيجان، وما كانت أقلامهم تقل عن سيوفهم فإن كان للسيوف فتوح فإن للأقلام علوم ومعرفة أيام أن كانوا أمة واحدة ضمت الدنيا أصابعها ولكن فرقتها الحزازات والأحقاد، ثم تحدث عن تنمر الغرب للأمة العربية فلازالت ثارات طارق بن زياد تؤرقهم، ثم تحدث عن دواعي وأسباب تجمع أمة العرب والمسلمين في فلسطين، فلقد عادت "فلسطين" "أندلسا" جديدة، ثم يستنهض الأمة بأن تستدعى التاريخ وتستدعى القيادات الإسلامية والتاريخية فيتحدث عن (فتى حطين) وهو (صلاح الدين) ذلكم القائد العربي المسلم الشهير المنتصر في معركة حطين، وبعدها نراه يتحدث عن قطره الأثير (مصر) وهو لا يتحدث عن مصر كمصر بل مصر من منظورة هو وعشقه لها وفخره بها وبدورها في أمتها العربية فهي كنانة الله وهي للشرق حصن تحرسه بشيبها وشبابها، فلقد أبي شعبها وأهلها عقد معاهدة سنة ١٩٣٦م التي كانت مبرمة بين مصر وانجلترا، فكم مشى شعبها وجندها للموت في جذلٍ فها هي مصر من الأمة بمثابة الشريان للجسد فإذا كان لكل جسم شرايين يعيش بها فإن مصر للشرق والإسلام شريان.

يقول الجارم مصوراً هذه المعاني:

قلبي وفيض دموعي كلما ذكرى فلسطين خفَّاق وهتَّان

لقد أعاد بها التاريخ أندلساً ... أخرى وطاف بها للشر طوفـــان

ميراثنا في فتى حطين أيـــن ... وهل نهايتنـــا يُـــتْمُ وحرمـــان

ردُّوا تراث أبينا مالكم صلةٌ ... به، ولا لكم فـــي أمرنـــا شـــان

مصيبة بَرم الصبر الجميـــل ... وعزٌّ فيها علي السلوان سلوان

بنى فلسطين كونوا أمة ويداً ... قد يختفي في ظـــلال الـــورود

وكيف يـــأمن رعيـــان وإن ... إذا تردَّى ثياب الشاءِ ســـرحان؟

ومصر والنيل مـــاذا اليـــوم ... فقد سرى بحديث النيل ركبـــان

كنانة الله حصـــن الشـــرق ... شيب خفاف إلي الجُلَّي وشـــيانُ

أبوا علي القسر أن يرضـــوا ... بكل حرف بهـــا قيـــد وســـجَّانُ

وكم مشوا للقاء الموت فـــي ... والموت منكمش الأظفار خزيان

لكل جسم شرايين يعيش بها ... ومصـــــر للشـــــرق والإســـــلام

الإشادة بنهضة مصر العلمية في شعر الجارم

وللجارم قصيدة أخـــرى بعنـــوان (العيـــد المئـــوي لـــوزارة المعارف) ولقد ألقى هذه القصيدة عندما احتفلت وزارة المعارف فـــي اليوم الثلاثين من شهر مارس سنة ١٩٣٧م بعيدها المئوي وقد أقيم الحفل بدار الأوبرا في حشد حافل جمع عظماء مصر وكبار علمائهـــا وأدبائها

(١) ديوان الجارم طبعة دار الشروق صـ ٨٥-٨٦.

والتي مطلعها:

أخرج الروض أطيب الثمرات هات ما شـئت مـن قريضـك

وفي هذه القصيدة نراه يتحدث عن مرور مائة عـام علـي إنشاء دار المعارف وهي أعوام زاهيات حافلات بما حوت فقد ارتفعت بمصر فوق السحاب، وأصبحت مصر بفضـل دار المعـارف حـديث القاصي والداني وهي تعد كعبة يحج إليها أهـل الشـرق خاشـعين معظمين، ومصر في حالتها تلك تتيه عجباً ودلالاً بماضـيها الزاهـر الذاهي وحاضرها المشرق يقول الجارم مصوراً هذه المعاني:

مائة من سـنيِّ (المعـارف) زاهيات بمـا حـوت حـافلات
بلغت مصر في مداهن شأواً فوق شأْوِ الكواكب السـابحات
وغدا مجدها الحديث .. وقد ع، شذا عطره – حديث الرواة
أصبحت كعبة يحـج إليهـا ق بـين الخشـوع والإقنـات
تتهادى وحَـقَّ أن تتهـادى بين ماضٍ زاهي الجبين وآتـي
كل تاريخها كتاب من المجد كـريم مطـرَّز الصـفحات
بعثتْ دارس الفنون وأحيـتْ بعد يـأس الزمـان أمَّ اللغـات
وأعادت إلي العلـوم منـاراً كان صبحَ الدجى وهدْى السراة
أنجبت للبلاد أبطـال عـزم هم دروع البلاد فـي الأزمـات

(٢) ديوان الجارم طبعة صـ ٩٦.

دعوا الشعب للعــلا فرأينــا خير شعب أجاب خيــر الــدعاة
أنجبت كل عالم بهر الكــون بآيـــات علمـــه البينـــات
أنجبت كلّ شــاعر عبقــري صادق الحس بــارع اللفتــات
تتمنى الأزهار لو كنَّ يومــاً في قوافيــه موضــع الكلمــات
أنجبت كل كاتب يملك السمع بآثـــار فنـــه الخالـــدات
أنجبت كلَّ مِــدْرَهٍ وخطيــب ساحِرِ القولِ صادق الحمــلات
وحمتْ شِرْعَةَ الخلائــق أن صـــافي نميرهـــا بقـــذاة
قد ولجنا الحياة من كل باب فرأينا الأخــلاق بــاب النجــاة
أصبحتْ مصر معهداً لشباب الشـــرق، يســـعون نحوهـــا

هذه هي مصر العلوم في عين عاشــقها (الجــارم) فهــي أم العلماء والشعراء والكتَّاب والخطباء وأصحاب المتون والفنون وهي كعبة الرواد ومقصد طالبي العلم.

وإذا كان الجارم عاشق لمصر وطبيعتها الجغرافية، الساحرة مفتــون دائماً بجمالها فإنه كذلك لا يقل عشقه لها من خلال شعبها وجنــدها فهو عاشق لكل ما فيها ومن فيها، ففــي قصــيدته التــي بعنــوان (فلسطين) (٢)

---

(١) الديوان، جـ١، صـ٩٦.
(٢) الديوان صـ ٢٨٦.

وهذه القصيدة نظمها الجارم عندما توالت انتصارات الجيش المصري في فلسطين عام ١٩٤٨م إلي أن وصل إلي مشـــارف (تـــل أبيـــب) فتدخلت أمريكا وفرضت الهدنة علي الجانبين من أجل صالح إسرائيل لتجنبها عار هزيمة محققة:

يقول فيها الجارم:

تألق النصر فاهتزتْ عواليـنا ... واســـتقبلتْ موكـــب البشـــرى
غنَّى لنا السيف في الأعناق ... عزتَّ علي الأيك إيقاعاً وتلحينا
هزته كـــفُ مـــن الفـــولاذ ... في الهول ما عرفت رفقـــا ولا
من صخر (خوفو) لها دون ... جرى به دمُ عـــدنانٍ شـــراييـنا
نفسي فدى الفارس المصرِيّ ... به المواكب أو خاض الميادينـــا
تلقاه في الســـلم مـــاءً رفّ ... وفي الحروب إذا ما ثار أتُونـــا
يرى الـــدماء عقيقـــاً ســـال ... ويحســـب النقـــع فيهـــا مســـك
ما بين (عمـــرو) و (مينـــا) ... فمن كآبائه عُرْبـــاً فراعينـــا(١)

هكذا يصور الجارم جند مصر الفرعونية الإسلامية وبعد هذا التصوير الدقيق نراه يؤكد عليه بقوله:

سَلْ مصر عنهم سَلْ التاريخ ... سراً من المجْدِ لا ينفك مكنونا

(*) دارين: طبيب من منطقة بالبحرين ينسب إليه المسك.
(١) الديوان، جـ١، صـ٢٨٦.

سيوفهم كنّ للطغيان ماحقــةً وعد لهم كان للــدنيا موازينــا
وجيشهم هزتْ الدنيا كتائبــه وحكمهم ملأ الآفــاق تمــدينا
إنَّا بني الأُسْدِ أمضى مخلبــاً لدى الصراع وأحمــى النــاس
إذا دعا الحق لبَّته جحافلنــا وإن سطا الجور ردّته مواضينا
عشنا أعزاء ملء الأرض ما جباهنــا تربهــا إلا مصــلينا
لا ينزل النصر إلا فوق رايتنا ولا تمس الظُّبــا إلا نواحينــا

وبعد هذه اللوحة التصويرية التي تعد رسماً بالكلمــات نــراه يتحدث عن اليهود وإسرائيل داعيــاً الله أن يهلكهــم معــدداً ألــوان التعذيب والهلاك فيطلب من الجبال أن تقذفهم بالأحجار مــن حمــم، والسماء أن تمطر عليهم مُهْلا وغسلينا، ويقول: للكواكب آن الــرجم فارجمي هؤلاء الشياطين، وينادى البحار أن تجعــل ماءهــا الملــح الأجاج دماً إن علَتْ لأبناء صهيون راية، فعهدهم خُلْفُ وجحود وهم أهل رياء ونفاق وفي نهاية القصيدة نجده يعرج بالحديث إلــي جنــد مصر وكأن ما بين المطلع الختام واحة تبرر وتدلل علي المطلع.

والنتيجة في الختام إذ يقول:

يا جيش مصــرَ ولا آلــوك حققت ظنَّ الليالي والمنى فينــا
وصَلْتَ آخر عليانا بأولهــا فمــا أواخرنــا إلا أوالينــا
أعدتها وثبة بدرية صرعتْ وعلمت مترفيهم كيف يصــحونا

تسير من ظُفْر حلوٍ إلي ظُفْر ... مبارك الفتح والرايات ميمونـــا

فيك الملائكة أجناد مســـوَّمة ... أعلامها تتهادى حول جبرينا(*)

وفيك مـــن مهجـــات النيـــل ... فيها مطامحنـــا فيهـــا أمانينـــا

يمشون للموت فـــي شـــوق ... لأنهم فـــي ظـــلال الله يمشـــونا

إن شك في عزمة المصري ... فبين فتياننـــا يلقـــى البراهينـــا

لا يستطيع خيـــالُ وصـــف ... ويعجز الشعر تصويراً وتلوينـــاً

هم رياحين مصـــرٍ نضـــرةً ... لا أذبـــل الله هاتيـــك الرياحينـــا

صان الإله لجيش الشـــرق ... وصان أبطاله الغرّ الميامينا(١)

(*)جبرينا يقصد سيدنا جبريل عليه السلام.

(١) الديوان، جـ١، صـ٢٩٠-٢٩١.

الحب من أجل مصر دفاعاً وانتماءً:

ولم يتوقف حب الجارم لمصر عند وصفها ووصف طبيعتها بل نراه يحب ويمدح من يحبها ويتفانى في سبيلها ومن قام على قضاياها حتى أنه إذا أراد أن يعدد مناقب الممدوح نراه ينسى مناقبه الشخصية ويمتدحه بما قدم لمصر ومن أجلها نجد ذلك ماثلا في قصائد المدح والرثاء للأعلام في عصره من ذلك مثلا ما نجده في قصيدته في رثاء (سعد زغلول).

والتي مطلعها:

لا لدمع غاض ولا فؤادك دخل الحِمام عرينة الرئبال

فنرى الجارم في البيت الثاني بعد المطلع يتحدث عن الموت وأنه أَصاب سعد، ومن سعدُ هذا إنه من رفع مصر بعد طول نضال منه ومن إتباعه من المصريين يقول الجارم:

وأصاب في الميدان فارس رفع الكنانة بعد طول نضال
كتب الكتائب حول مصرَ صبر الكريم وهمَّة الفعّاَل
ومن السيوف إرادة مصقولة طبعت ليوم كريهة ونزال
ومن السوابغ حكمة سعدية تزري بوقع أسنة ونبال
ومن الحصون فؤاد كل جهم العزيمةِ ضاحك الآمال
فمضى إلي النصر المبين والشعب يهتف باسمه ويغالى

وهدَى الشَبَاب إلي الحيـــاة معني الحياة وعَـزَّ الاســتقلال
وجرى يُغَبِّر لا العسير بخاذلٍ أملاً، ولا نيــلُ الســها بمحــال
فكأنه سيف المهنــد خالــد وكـــأن دعوتـــه أذان بـــلال
ما راعه نفيُ ولا لعبت بـــه فـــي حـــبُ مصـــر زعـــازع

وها هو الجارم الذي جعل حبَّ مصر والدفاع عنها مناط فخر ومدح لكل من دافع ونافح عنها، وهذه هـــي قصـــيدته التـــي قالهـــا بمناسبة مرور مائة عام علي وفاة (إبراهيم بن محمد علي بك) عندما أزاحوا الستار عن لوحة نقشت علي قاعدة تمثالـــه المقـــام بميـــدان الأوبرا بالقاهرة عام ١٩٤٨م، والتي مطلعها:

طموح وإلا ما صراعُ الكتائب وعزم وإلا فيم حـــثُّ الركائـــب

فنراه يتحدث عنه ويقول أنه باق خالد جزاء ما قام به حيـــال مصر وإن من قام بمثل هذه الأعمال يظلُّ ذكره باق خالد إذ يقول:

وكم بطل في الأرض غـــاب يحلق في الآفاق لـــيس بغائـــب
يدوِّنه الميلاد بـــين لداتَـــه ويكتبه التاريخ بـــين الكواكـــب
وما مات من أبقى لمصـــر تطاول أعنان الســـماء بغـــارب
لقد زهيت مصـــر بباعـــث لكسب المعالي واقتناء الرغائب

(١) الديوان جـ١، صـ٣٣: ٣٥.

وكم كتب التاريخ لابن محمد خوالد، والتاريخ أصدق كاتب
وكم صان مصراً من بنيه بعيد منال العزم جمٌّ الكتائب(١)

وإن ذهبنا نتحسس ذلك في قصيدته التي بعنوان (رثاء زعيم) والتي أنشدها في حفلة تأبين المغفور له (محمد محمود باشا) بدار الأوبرا عام ١٩٤١م

والتي مطلعها:

جودي بما شئت من ذوب أودتْ صروف الليالي بابن

نراه يتحدث عن علاقته بوطنه الأثير مصر حين لاذت بذلك البطل وللأحداث ملحمة والخطوب متشابكة، والناس في ضيق وفي كمد نراه يصور ذلك فيقول:

دعته مصرُ وللأحداث ملحمة والخطب ما بين تهدار وتهديد
وأنفُس الناس في ضيق وفي كأنها زفرة في صدر معمود
حيرى تلوذ بآمال محطمة كما يلوذ غريم بالمواعيد
طارت شعاعاً وهولاً مثلما هوج الرياح برمل البيد في
والجو أكلف والدنيا مقطبة أيامها البيض من ليلاتها السود
ومصر ليس لها حصن ولا إلا الغطاريف من أبنائها الصيد
لها سلاح من الإيمان ينبوا له كل مصقول ومحدود
فجاءها خالديُّ العزم في نفر شم الأنوف صناديد مناجيد

---

(١) الديوان، جـ١، صـ٤١.

من كلِّ عنوانُ الجهـــاد بـــه قلب ركين، ورأى غير مخضود

جاءوا يزاحمهم عزم وتفدية كما تصـــادم جلمـــودُ بجلمـــود

كأنهم حينما شدّوا لغـــايتهم سهم المقادير في قصد وتسديد

صدورهم بلقاء الهول شاهدة والطعن في الظهر غير الطعـــن

جـــادوا لمصـــر وفـــدَّوها والجود بالنفس أقصـــى غايـــة

إذن الجارم في هذه القصيدة يمتدح (محمد محمـــود باشـــا) ورفاقه في حب مصر إذن هو مدح نبـــذ فيـــه الصـــفات الشخصـــية وامتدح فيهم حب مصر وفدائهم لها بالنفس والنفيس.

ولم يكتف بمدح أعلام السياسة وإنما تعداهم فمدح كلَّ مـــن أسدى إلي مصر معروفاً فها هو الجارم ينظم قصيدة ويبعث بها إلـــي صديقه الدكتور (علي توفيق شوشه) وكيل وزارة الصـــحة اعترافـــاً بفضله في استئصال الأوبئة بمصر عام ١٩٤٧م.

والتي مطلعها:

نظمت لآلئ الفردوس عقـــداً ومن ذهب الأصيل وشيتُ بُرْدا

يقول فيها:

فتى مصر، وهل تلقى بمصر فتى أمضى وأروى منه زنـــدا؟

تدارك مصـــرَ والميكـــروب وينفـــث سُـــمَّهُ وبـــؤُدُّ أدَّا

---

(١) الديوان جـ١، صـ١٢٦-١٢٧.

طوى آجـــال أهليهـــا هبـــاءً وبـــدد نســـلها فتكـــاً ووأْدا
فشد عليـــه مقـــداماً جرئيـــاً كما هيجت يومَ الـــروعِ أُسْـــدَ
تحداه وصَـــالَ ولـــو سِـــواه أراد لما اســـتطاع ولا تحـــدى
فطهر أرضها وحمى حماهـــا وضـــــان شـــــبابها وهـــــدى

ففي هذه اللوحة التعبيرية نجد الجارم مادحا لا من أجل كسب وإنما من أجل مصر فإن كان الساسة بنافحون الأعداء فـــي ســـبيلها فإن هذا الطبيب بنافح الأمراض من أجل سلامة أهلها ومن هنا ندرك أن الجارم في هذا وذاك مادح محب لمصر، وإذا كـــان الجـــارم فـــي أمداحه يمدح من أجل مصر، فإنه كذلك في نهايته لم ينس مصر فقد ملأت عليه كل حواسه بل وهي شغله الشاغل في غـــدوه ورواحـــه وحلَّه وترحاله، فهذا هو الجارم يهنئ (سعد زغلول باشا) بنجاته من خطر العدوان عليه وقد ألقيت هذه القصيدة في حفلٍ حاشد فـــي ٢١ من يوليو سنة ١٩٢٤م.

والتي مطلعها:

يا أبا الأمةِ يـــا مَـــنْ ذكـــره مـــلأ الـــدنيا حـــديثاً عطـــرا
هزَّ مصراً نبـــأُ فاضـــت لـــه عبرات القـــوم تجـــري مطـــرا

نراه في هذه التهنئة يصرح بسبب هذه التهنئـــة، وهـــو أن سعداً هو مصر فيدعوا له أن يعيش لمصر لأنها به تحيا وتبلغ الآمال

(١) الديوان، جـ١، صـ٢٠١.

يقول الجارم مفصحاً عن هذا المقصد:

أنت مصر عش لمصر إنهـا ... بـك تحيـا وتنـال الـوطرا
بطل أيقـظ مصـراً بعـدما ... كاد يُرْدى أهلها طـول الكـرى
بعـث الله بـه فانبعثـت ... رسـل الآمـال تتـرى زمـرا
وطوى الله به عهداً مضـى ... تهلـع الـنفس لـه إن ذكـرا
قاد جيشاً من قلـوب حولـه ... خاضـعات إن نهـى أو أمـرا
تركب الصعب إلي مرضـاته ... وتلاقـى فـي هـواه الخطـرا
شَلَّ زَنْدُ قد رمى زند العُـلا ... وحمـى الله الـرئيس الأكبـرا
محَـقَ الله أبـا لؤلـؤةٍ ... ووقى مصـراً فـأبقى عُمَـرَا
إن مـن يحرُسُـه بـارؤه ... لا يبـالي بـالردي إن خطـرا
فهنـاءً بنجـاة كشـفتْ ... غمَّـة القُطـرِ وطابـت أثـرا
عاش سعد والمليك المرتجى ... موئلُ الأمة في أسمى الذرا(١)

وإذا كان الجارم في أمداحه وتهانيه كان يمدح ويهنـئ مـن أجل مصر فإنه كذلك في رثائه يرثى من أجل مصر فنراه في قصيدته في رثاء (شوقي) والتي ألقاها عندما احتفلـت الحكومـة المصـرية بتأبين المرحوم (أحمد شوقي بك) وكان قد اجتمع لذلك بدار الأوبـرا حفل حاشد في سنة ١٩٣٢م حضره شعراء بعض الـدول العربيـة، وهذه القصيدة مطلعها:

---

(١) الديوان جـ٢ صـ ٢٥٢.

هل نعيتم للبحتـــري بيانـــه أو بكيـــتم لمعبـــد ألحانـــه

أورأيـــتم روض القـــريض بعد ما قصَّف الردي ريحانه(١)

فنرى الجارم يقدر فيه حبه بل وعشقه لمصر فقد كان صباً يهيم بها شوقاً.

إنظر إليه وهو يقول:

كان صبًّا بمصرّكم هام شوقاً برُباهـــا وبثهـــا أحزانـــه

دفن اللهو والصِّبا في ثراها وطوى مـــن شـــبابه عنفوانـــه

هـــي بســـتانه فغـــرَّد فيـــه وحبـــا كـــلَّ قلبـــه بســـتانه

يحرس الفـــنَّ فـــي ظـــلال ويرمى عَـــنْ دوحـــه غِرْبانـــه

يعشق النيل والخمائل تهتـــز بشـــطيه خضـــرة ولدانـــه

يعشق النيل والجزيرة تغريه وقـــد لـــفُّ حولهـــا أردانـــه

يعشق الجســـر، والســـفائن حولـــه كالحمـــائم الظمآنـــة

ويحب الســـواد مـــن عـــين مالئـــاً مـــن روائهـــا أجفانـــه

كل شيء بمصر يبهر عينيه جمـــالاً ويســـتثير جنانـــه

كلما هزّه إلي الشعر شـــوق جذب الحـــبُّ نحوهـــا وجدانـــه

فشدا باسمها كمـــا تصـــدح وقد شـــمر الـــدجى طيلســـانه

وجلا مجدها القـــديم جديـــداً بعدما هدّم البلـــى أركانـــه(٢)

---

(٢) ديوان الجارم صـ ٢٩٢ جـ٢.

(٢) الديوان، جـ٢، صـ٢٩٥-٢٩٦.

حتى عندما جاءت الوفود من جميع الأقطار العربيـــة لتبـــايع شوقي بالإمارة لم ينظر إليها الجارم علي أنها رفعة له وحده بل هي رفعة وسمو له ولمصر كافة.

إذ يقول:

رفعت مصر راية الشعر في ق، وأولتْ أميـــره صـــولجانه
ومشى الدهر في الوفود إلي البيعة يحتـــث نحـــوه رُكْبَانَـــهْ
ورأينا مجداً يشـــاد لمصـــر يعجز الـــوهم أن ينـــال قِنانـــه
وسمعنا بكـــل أفـــقٍ رنينـــاً رددتـــــه القصـــــائد الرنانـــــه
هكذا كلُّ من يريـــد خلـــوداً يجعـــل الكـــون كلـــه ميدانـــه
هكذا فليسر إلي المجد مـــن ء، ويرفع بـــذكره أوطانـــه(١)

وعندما احتفلت مصر بمرور خمســين عامــاً علــي وفــاة الخديوي (إسماعيل) نشرت هذه القصيدة عام ١٩٤٥م والتي مطلعها:

حسام له مجد الخطوب قِراب يحوِّم شعري حولـــه فيهـــاب

يقول فيها الجارم متحدثاً عن آثار الخديوي إسماعيل وأنها لا تعد ولا تحصى، وأن مصر بشعبها كان لديها الاستعداد للتقدم فسارت خلفه مسرعة خطاها حتى الشوك في خطى مصر بشـــعبها لـــم يعـــد شوكاً، ولا نكبات الطريق أصبحت عندها بنكبات، وإن أوهت عزيمـــة مصر شدَّ عزمها لأنه همام ذا همه جعلته يأمل فيما فوق النجوم وإن

(١) الديوان جـ٢صـ ٢٩٧.

أظلمت طرق التقدم لمصر أضاء لها شهاباً من رأيه وذكائه، ومصـــر رأتْ فيه زعيما عزَّ أن يأتي الزمان بمثله، فهو كالبدر والبدر ما لـــه شبيه ولا مثيل فقد اهتم (الخديوي إسماعيل) بنهضة مصر العلميـــة حتى أنه جعل مصر قطعة من بلاد الغرب تقدماً وجعل في كـــل حـــي منبراً للعلوم

يقول الجارم مصوراً هذه المعاني:

وما كلُّ من أرخى العنـــانين ولا كل داع للنهـــوض مجـــاب
إذا ما عددنا مأثرات يمينـــه علي مصر لم ينفذ لهن حســـاب
دعاها فسارت خلفه تســـرع وهمتهـــا للمعضـــلات ركـــاب
فما الشوك في أقدامها حين بشوك، ولا صمُّ الهضاب هضاب
إذا وهنت أذكى لظى رغباتها همام له عند النجـــوم رغـــاب
وإن أظلمت طرق المعـــالي من الرأي منه والذكاءَ شـــهاب
رأتْ مصرُ فيه عاهلاً عـــزُّ ومن أين للبدر المنير صـــحاب
حباها أبو الأشـــبال جـــرأة له ظفر يفرى الخطوب ونـــاب
وأزلفها ملء النواظر جنَّـــةً تميد بها الأغصان وهي رطاب
وألبسها من نهضة الغـــرب وكم زانت الغيدَ المـــلاح ثيـــابُ
ففي كل حيٍّ للعلـــوم منـــابر وفي كل ركن للفنـــون رحـــاب
وأين رميت الطـــرف تلقـــى سوامقها فوق السحابِ ســـحابُ
عجائب صنع يصغر الـــدهر وكلُ فعـــال الخالـــدين عجـــاب

وجهد من الفولاذ مـــا كـــلَّ وصادق عهد ليس فيـــه كـــذابُ

وللجهد في الـــدنيا نصـــابُ وليس لجهد العبقري نصاب(١)

هذا هو الجارم العاشق لمصر ولأهلهـــا والمجـــل والمعظـــم والمادح لمن أحبها وعمل من أجلها.

(١) الديوان جـ٢صـ ٣٠٠-٣٠١.

الفصل الثاني

المعجم الشعري، وبناء الأسلوب (عند الجارم)

تعتبر الألفاظ هي العنصر الرئيس في جوهر العمل الأدبي، إذ هي الوعاء الذي يصب فيه الأديب معانيه وخواطره، وعاطفته وصوره، كما أن الطبع يفرض ارتباط الألفاظ بواقع الأديب النفسي، فهي جزء من شخصيته ونفسه في شتى أحوالها، فهي هادرة في غضبه، ثائرة في حبه، ضاحكة حانية في لهوه ومرحه، باكية دامية في حزنه وشجنه "الألفاظ هي الوسيلة لإدراك القيم الشعورية في أي عمل أدبي، وهي الأداة التي تهيئ الأديب أن ينقل لنا تجار به الشعورية، ففي أي عمل أدبي تناغم بين الفنان والطبيعة، وفي تجربته الفنية يشكل بالألفاظ تصوراً لما حوله أو لبعض ما حوله ويقدمه لنا في إطار يحرص علي أن يضمنه أحاسيسه وأفكاره"(١)

" ومن المحقق عند نقاد الأدب ألا تصدر أحكاماً علي الشعراء دون تحليل مسبق للغتهم الشعرية، فكل شاعر يتناول الأغراض التي

---

(١) النقد الأدبي الحديث – أحمد كمال ذكي صـ ٣٩.

ينظم فيها من وجهة خاصة مستعيناً في التعبير عنها بوسائل أسلوبية مميزة"(١)

ومن هنا فلقد كانت ألفاظ الجارم نابعة من نفسه مطبوعة بشخصيته، غنية بمشاعره، ثرية بإحساساته وعواطفه، وهذا ما أضفى عليها الرقة والعذوبة، والحلاوة وروعة الجرس، وجمال النغم، وقوة الأيحاء.

ولقد جاءت ألفاظه مناسبة لأغراضه، فقويت في مواطن القوة، ورقت في مواطن الرقة.

وعلي هذا وبعد أن عرضنا لبعض شعر الجارم في وطنه الأعز (مصر) فالدراسة الفنية تحتم علينا أن نحلل بعض الملامح الأسلوبية واللفظية المميزة لشعره فيها، فدراسة لغة الشاعر المرتبطة بهذا الجانب من شعره توحي بأن الشاعر استخدم ألفاظاً وتراكيب لفظية ذات دلالات متنوعة، تختلف باختلاف أحاسيسه وعواطفه، وأول ما يستوقفنا هو استخدام الشاعر لألفاظ ذات طابع عاطفي تملؤه مشاعر فياضة توحى بعاطفة حقيقية غير تقليدية من ذلك قوله:

أنت يا مصر بسمة في فم ودمع الحنان فوق الخدود

(٢) اللغة و الدلالة في الشعر د. علي عزت صـ ٩.

أنت في القفر وردة حولهـــا ك، وفي الشوك عــزة للــورود
يابنة النيل أنت أحلى مـــن وأزهى من ضاحكات الوعود(١)

فالحالة هنا إفصاح عن حب وتقدير لمكانة مصر لذلك وجدنا ألفاظه موحية ومصورة لعاطفته نحوها من مثل : (بسمة فـــي فـــم الحسن، الحنان ، وردة، أنت أحلى من الحب، أزهى)

وهذه الألفاظ المختارة تعبر في وضوح وسهولة عن إحساس الشاعر بمن ملأت عليه لبه وشغافه، ومن هنا فاللغة لا ترمــز إلـــي أفكار فحسب وإنما أيضا تكشف عن عواطف "فهي النظام الذي يحلل القيم العاطفية، وعندها تظهر الوقائع التعبيرية محــدودة وشخصــية تتعين لنا ملامحها العاطفية"(٢)

ومن قبيل هذه الألفاظ التى تكشف عن طبيعة الشاعر المحب لمصر ولأهلها حيث أنها منه قرة العين إذ يقول:

اليـــوم يومـــك مصـــر لله حمـــــــدٌ وشـــــــكرُ
فلـــــن يروعـــــك رِقٌ ولـــــن يمســـــك أسْـــــرُ
وكـــل مـــا فيـــك صـــفو وكـــل مـــن فيـــك حـــرٌ
تعـــيش مصـــر وتبقـــى فقـــرَّةُ العـــين مصـــر(٣)

(١) الديوان جـ١صـ ٢١.
(٢) العدد الثاني من مجلة فصول – المجلد الأول يناير سنة ١٩٨١م من بحث للدكتور سليمان العطار – الأسلوبية علم وتاريخ صـ ١٣٢.
(٣) ديوان الجارم جـ٢ صـ ٤٣٩.

فقد أتى بألفاظ تصور عاطفته التي هي المرآة العاكسة لما تنطوي عليه نفسه من حب وإعظام لمصر وأهلها لن يروعك رق – لله حمد وشكر– لن يمسك أسْرُ – كل ما فيك صفو – كل من فيك حر.

والشاعر يختار ألفاظه بعناية ودقة لتثبت حقيقة وهي أن مصر قد فرضت حبها علي قلوب كل الأمم وليس علي أهلها فحسب إذ يقول:

وأتَتْ كلُّ أمةٍ ترتجى "مصر" وداداً وتنهل العلم ورداً
كعبة حَجَّتْ الوفود إليها تْستحثُّ الرِّكاب وفداً فوفدا(١)

(٤) ديوان الجارم جـ٢ صـ ٣٧٥.

الأسلـــــــــــوب

لكل شاعر أسلوب يميزه عن غيره من الشعراء، فالجارم وإن كان "ينتمي فنياً إلي الاتجاه البياني المحافظ في الشعر العربي الحديث وهذا الاتجاه الذي كان من أعلامه، أحمد شـــوقي، حـــافظ إبـــراهيم، ومحمد عبد المطلب، وأحمد محرم وغيرهم"(١) إلا أننـــا نجـــد لـــه سمات لا نجدها عند شاعر سواه، وليس معني هذا أنه يختلف عـــن جميع الشعراء، وإنما يعني أن له طريقة في نظم لغته تضـــمن لـــه بعض الاستقلال، ولما كان ذلك الشاعر دائم الثورة علي مـــا يكـــره، ويأنس لما يحب، فقد عُرِفت نفسه بانطباعاتها كيف تفرض نفســـها علي بيانه وتجعله صادقاً، ومن ثمَّ أصبح له صورة خاصة كشفت عن طريقة تفكيره في الأشياء، أو تفسيره لها، وإذا كانت هنـــاك ملامـــح عامة تسيطر علي أسلوب الأدباء بصفة عامة في عصر من العصور، فإن ذلك لا يعفيهم من الاعتماد علي أنفسهم لإظهار شخصيتهم فـــي أسلوبهم، وعلي هذا فمن الصحيح أن يقال أن للأسلوب صفات عامة تحقق له الكمال، وسمات خاصة تميز أديباً عن آخر وهو ما يطلـــق عليه إخلاص الأديب لأدبه وفنه، لذلك وجدنا الأستاذ الأديب والناقـــد (أحمد الشايب) يقول:

---

(١) الجارم في ضمير التاريخ- إعداد – د. أحمد علي الجارم صـ ٤١٩.

"الإخلاص في تصوير ما في النفس من فكـــرة واضـــحة أو عاطفة صادقة تجعل الأسلوب مقبولاً، ويصبح من ثَمَّ مـــرآة العقـــل والخلق والمزاج والتخيل، سواء أكانت تلك جميلة أم قبيحة، مستقيمة أم مضطربة"(١)

وأهم ما يميز أسلوب الجارم في شعره عامة "الوضوح" فقـــد كان يعمد إلي الوضوح وعدم الإبهام لأنه فهم رسالة الشعر وأيقن أن وضوح الأسلوب دليل علي وضوح الفكرة لديه، والجارم كان يمتلـــك ناصية اللغة مما مكنة من التصرف في تراكيبه وإحكامها.

ومن سمات شعر الجارم أنه كان يعتمد فـــي أســـلوبه علـــي القوة، وقوة أسلوب الجارم ومتانته تتمثـــل فـــي التزامـــه بأســـلوب الأقدمين حيث أنه كان يستلهمهم أو يعارضهم ومن الصفات الملازمة لأسلوب الجارم "الجمال" فالجمال صفة ملازمة للأســـلوب الشـــعري بوجه عام طالما أن الشاعر معنيٌّ بإثارة القراء وتحريك مشـــاعرهم ولو عمدنا إلي بعض أبيات من شعره في قصيدته التي قالها في رثاء أمير الشعراء أحمد شوقي والتي مطلعها:

هل نعيتم للبحتـــري بيانـــه أو بكيـــــتم لمعبـــــد ألحانـــــه
أو رأيـــتم روض القـــريض بعد ما قصف الـــردي ريحانـــه

(٢) الأسلوب – أحمد الشايب – صـ ١٧٥.

فزَّعتْ طيرهُ، فحَوّمنَ يبكين ذبـــول الخميلـــة الفينانـــه
كُنَّ في ظلها يُغَنِّـينَ للشـر ق ويُنْهضـــن للعـــلا شـــبانه
كُنَّ في ظلها يُحَيِّين مجـداً صاعداً ضـلت النجـوم مكانـه
كُنَّ في ظلها ينـاغين آمـا لاً، ويبعـــثن همـــة وهنانـــه
أيها الطير ضنَّ ماء القوافي فبـــذلنا دموعنـــا الهتانـــه(١)

كما بينا أن للجارم أسلوبه الخاص فـي تصـوير مشـاعره وإبراز عواطفه وخواطره فتارة نجد يعمد إلي الحوار كما في المطلع فنجده يدير حواراً بينه وبين القراء في قوله " هل نعيـتم، وقولـه: أورأيتم وكذلك يدير حواراً بينه وبين الطير في قوله: "أيهـا الطيـر" وقوله: "مات يا طير".

وكذلك من أساليب الجارم التي يعتمد عليها التكـرار وهـذا التكرار يشعرنا بالجو النفسي، ويوحى بلظـي الانفعـال الوجـداني، وينبئ عن توهج العاطفة وفورة المشاعر، فضلاً عن أنـه قـد أدى دوره في نمو البناء العاطفي وتقوية المعني وتأكيده، نجد ذلك مـاثلاً في ثلاثة أبيات متوالية إذ يقول واصفا روضة شعر شوقي:
كن في ظلها يغنين، كنَّ في ظلها يُحيين، كن في ظلها يناغين.

(١) الديوان جـ١ صـ ٢٩٢.

والجارم قد تأثر بالقرآن الكريم أيما تأثر فوجدناه يكثر من الاقتباس، بل كان يستعمل في شعره آيات برمتها وهذا يعد من مميزات أسلوب الجارم فمثلاً قوله من قصيدته التي مطلعها:

مالي فتنت بلحظك الفتَّاك وسلوت كل مليحة إلاك (١)

جاء فيها:

ليت البحار طغت عليك أو أن منْ يطوي السماء

ففي الشطر الأول اقتباس من سورة التكوير آية رقم (٦) التي يقول فيها المولى عز وجل "وَإِذَا البِحَارُ سُجِّرَتْ" (٣)

وفي الشطر الثاني إشارة إلي قوله تعالي من سورة الأنبياء والتي يقول فيها الله تعالي "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ"(٤)

وفي قصيدته يوم السلام والتي مطلعها:

داعب الشرق باسما وسعيداً وائتلق يا صباح للناس عيداً

في البيت الخامس والعشرين منها نجده مقتبساً من القرآن إذ يقول:

ذكرتنا جهنماً كلما ألـ ـقي فوج صاحت تقول المزيدا

---

(٢) ديوان جـ ١ صـ ٤٥.
(٣) ديوان جـ ١ صـ ٤٧.
(٤) سورة التكوير آية رقم ٦.
(١) سورة الأنبياء آية رقم ١٠٤.

ففي البيت إشارة إلي قوله تعالي " يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ"(١)

وعلي آية حال فإن الديوان زاخر بمثل هذه الاقتباسات وبهذا تكون ألفاظ الجارم وأساليبه قد جاءت في مجملهـــا ناصـــعة نقيـــة، موحية مؤثرة، معبرة عن خواطره ومشاعره دون تكلف أو عنـــاء، وقد وظفها الشاعر توظيفا فنياً رائعاً لتؤدي دورها في خدمة المعني وإثراء التجربة الشعرية.

---

(٢) سورة ق آية رقم ٣٠.

المعانى والأفكار:

إذا كانت الألفاظ والأساليب هى الوعاء الـذى يصـب فيـه الشاعر تجربته فإن المعانى والأفكار تعمل على إبراز، وتمثيـل رؤى الشاعر الفكرية، وخواطره النفسية وهذه الأفكار والمعانى متفاوتـة فى شعر الشاعر من حيث القوة والضعف، رقة ومتانـة، وضـوحاً وغموضاً حسب قوة شعوره أو فتوره، وصـدق تجربتـه أو زيفهـا وبالدقيق وإنعام النظر فى شعر الجارم نجد معانيه وأفكـاره قريبـة المأتى، واضحة القصد، بعيدة عن التكلف والغموض إن دل ذلك على شئ فإنما يدل على صدق شعورى، وعاطفة جياشة، وشعور دافـق وتجربة فنيه صادقة، كل هذه العناصر أنتجت لنا صدق شعرى فيـه وضوح الفكرة، التى تسهل فى فهمها علـى المتلقـى، لأن الشـاعر امتاح معانيه وأفكاره من واقعة وأحداث عصره وما طفا على الساحة من وقائع وتطورات والجارم يعد إبناً شرعياً لعصره ومصره.

والجارم بعيد كل البعد عن الإغراب والتغريب لأنه فهم رسالة الشعر وماهيته، فأما ماهية الشعر عنده أن الشعر هـو لـون مـن الحكمة ينبلج به الحالك، ويهتدى بدليله السالك، وخير الكلام مائتلفت ألفاظه، وائتلقت معانيه وكان قريب المأخذ بعيد المرمى سـليماً مـن وصمة التكلف، غنياً عن مراجعة الفكرة.

وأما عن رسالة الشعر عنده فهى الرجوع بالشعر إلى أزهى عصوره، والجارم شاعر متمكن، درس التراث الأدبى دراسة الناقد البصير، ورأى فيه مهوى فؤاده، ومثار إعجابه، فأيقن أن احتذاءه مد متصل لتيار يجب أن يفيض ويزخر ما بقيت العربية تتردد على الأفواه، ولا يعنى بالاحتذاء محاكاة شكلية تنقل عن الأصل دون إحساس صادق، بل يعنى تسطير عواطفه فى نهج عربى أصيل، لأن الشعر ميدان يتسابق فيه فرسان البيان، ولكل فارس حلبته الفسيحة وجواده السابق يوم الرهان.

لذلك وجدناه يسطر هذه المعانى فى شعره من قصيدة بعنوان خلود والتى مطلعها:

ضلَّ شعْرى وندَّ عنى بيانى ... ند ما على الشاعرين لو
سكت العندليب فى وحشة ... ح، وغنَّتْ نواعق الغربان
فسمعنا من النشوز أفانين ... ن، يُروِّعْنَ صادح الأفنان
أسمعونا برغمنا فصبرنا ... ثم ثرنا غيظاً على الأذان
جلبوا للقريض ثوباً من الغر ... ب، ولم يجلبوا سوى الأكفان
ثم قالوا مجددون فأهلاً ... بصناديد أُخْريات الزمان
لا تثوروا على تراث امرئ ... س، وصونوا ديباجة الذبيانى
واتركوا هذه المعاول بالله ... ه، فإنى أخشى على البنيان

(١) الديوان ج٢، صـ٣٥٢.

واحفظوا اللفظ والأســـاليب ق، وهاتوا ما شئْتم من معـــانى

مالسان القريض من عربى كلسان القريض من طمطمـــانى

إنما الشعر قطعة منك ليست مـــن دم اللاتـــين واليونـــان(١)

هل بعد هذا نقول أن الجارم لم يفهم رسالة الشعر وماهيتـــه كما قال أحد الباحثين عنه أن قال إلا مدحاً للملـــوك والزعمـــاء وإذا يقول:

(وها نحن ننظر فى ديوان الجارم الذى كان يريد أن يرشـــح لإمارة الشعر بعد شوقى فلا نكاد نعثر فى الأجزاء الأربعة التى يتكون منها الديوان على بضعة قصائد قالها الشاعر بحافز تلقائى أو تجربة شخصية، وإنما الجانب الأكبر من قصائده فى "مولد الفاروق" أو "عيد جلوسه" أو "شروق كوكب" أو "إسماعيل العظيم" أو "مـــرور عـــامين على سلسلة اقرأ" أو "رثاء الملك غازى" أو "علـــى إبـــراهيم باشـــا" وأمثال ذلك من المناسبات الاجتماعية التى قد يكون لها صدى حقيقى فى نفس الشاعر، أو يكون الأمر فيها مجرد تكلف لنظم الشعر مـــن موظف كبير أو ناظم طموح يرجو أن يثبت وجوده أو يتولى إمـــارة الشعر ومن شأن التكلف أن يفسد الطبع ويدعو للمبالغات الســـخيفة دفعاً لمنظمة الفتور والتصنع)(٢).

---

(١) الديوان ج٢، صـ٣٥٣.

(٢) الجارم فى ضمير التاريخ صـ٤٧٧.

ونحن نبرِّئ ساحة الجارم من مثل هذه الاتهامات لأن ديوانه خير شاهد على بطلان هذه التهم وغيرها أليس هو القائل متمنياً على الله ألا يكون مصدر رزقه شعره إذ يقول:

وتمنيت كلَّ شئ على اللـــــه، ســـوى أن أعــيش مــن

وقصائد الجارم مطيلة ومسهبة، يرتمى الخـــاطر فيهـــا وراء الخاطر، وكأن بحراً زاخراً يتدافع موجه، لجة جلف لجة، وتياراً وراء تيار، ولهذا مدلوله، لأن الشاعر هنا لا يؤدى واجباً فرضـــته عليـــه حفلات الشعر، فرأى أن يريح الجمهور ببعض ما يرضيه، ولكنه رائدٌ يقود الناس إلى آفاق يحلم بها، ويدعو إلى الصعود إليهـــا مصـِّـــوراً معارج السمو الراقى إلى هذه الآفاق)(٢).

إذن لقد أيقن الجارم أن للشعر رسالة وماهية فعمـــل لهمـــا ونظم شعره بهما فجاءت أشعاره بألفاظ مناسبة لأغراضها قوية فـــى مواطن القوة رقيقة فى مواطن الرقة وكذلك أفكاره ومعانيه واضـــحة بعيدة عن الغموض والتكلف.

---

(١) ديوان الجارم جـ٢ صـ٣٥٣.

(٢) على الجارم شاعر العروبة – د/ محمد رجب البيومى، صـ٥٥.

معالم الصورة الشعرية عند الجارم

للصورة الشعرية أثرها فى وجدان المتلقى وإثارة انفعالاته ومشاعره، وتقوية المعنى فى نفسه، فالصورة الشعرية هى روح الشعر ونبضه وشريانه، ولولاها ما سمى الشعر شعراً، ولفقد أهم خصائص مقوماته التى تميزه عن النثر، فالصورة فى معناها الجزئى والكلى هى الوسيلة الفنية لنقل التجربة الشعورية، أو هى كما قال أحد الباحثين:

(هى علاقة ضمنية أو صريحة بين تعبيرين أو أكثر تقام بحيث تضفى على أحد التعابير أو على مجموعة من التعبيرات لوناً من العاطفة ويكشف معناه التخيلى، وليس معناه الحرفى دائماً ويتم توجيهه ويعاد خلقه إلى حدٍ ما من خلال ارتباطه أو تطابقه مع التعبير أو التعبيرات الأخرى)(١).

والصورة أيضاً بنت الخيال ونبته، فالخيال هو الذى تنبثق عنه الصور وبه تتشكل وتتناسق وتتآلف ولا تتعارض، وارتباط الصورة بالخيال كارتباط الخيال بالعاطفة (وكلما كانت العاطفة قوية احتاجت إلى خيال قوى يعين عليها، وضعف أحدهما يؤثر تأثيراً قوياً فى ضعف الآخر، فالعاطفة وقود الخيال، والخيال وقود الصورة،

---

(١) الصورة والبناء الشعرى د/ محمد حسن عبد الله صـ٣٧.

والصورة أداتها اللغة، واللغة هى ريشة الشاعر وأداته الفنيـــة فـــى رسم أبعاد الصورة، ووسيلته إلى تنشيط الحواس وإلهابها)(١).

وليست الصورة شيئاً جديداً فمنذ أن وجد الشعر حتـــى هـــذا العصر الذى نحياه وهو قائم على الصورة، إذ فيها أكبر العون علـــى تقدير الوحدة الفنية وكشف المعانى العميقة التى ترمز إليها القصيدة، فالصورة تختلف من شاعر إلى شاعر آخـــر مـــن حيـــث اســـتخدام الشعراء لها، كما أن الشعر الحديث يختلف عن الشـــعر القـــديم فـــى طريقة، استخدامه للصور فشعراء ما قبل الإســـلام كانـــت صـــورهم محسوسة منظورة، كصور امرئ القيس فى ملعقته والتى مطلعها:

قفا نبكى من ذكرى حبيـــب بسقط اللـــوى بـــين الـــدخول

نجده يصور الجبل أبان بالرجل المزمل فى عباءتـــه وكـــذلك تصوير السباع الغرقى فى أرجاء هذا الجيل بأصول البصل البـــرى إذ يقول:

كأنا أباناً فى أفـــانين ودْقـــه كبير أناس فـــى بجـــادٍ مزمـــل

كأن سباعاً فيع غرقى عشية بأرجائه القصوى أنابيش عنصل

والدكتور إحسان عباس فى تأمله لهذه المعلقة نجـــده يبهـــر بتصوير امرئ القيس الذى ظل وسيظل حيّاً ولا تقتصر حياته علـــى

---

(١) راجع فى ذلك النقد الأدبى، أحمد أمين صـ٣٧ – والتفسير النفسى للأدب، د/ عز الدين إسماعيل صـ٧١.

(٢) ديوان امرئ القيس صـ٥٩.

(٣) ديوان امرئ القيس صـ٦٣.

عصره فقط (ولكننا حين نقف عند تشبيه الجبل أبان بالشيخ المزمل بالبجاد فإننا نحس أن الصورة استطاعت أن تظل حية على مدى قرونٍ كثيرة، وقد استطاع الشاعر أن يمنح الحياة الطويلة لكل صورة من صوره)(١).

ومن الشعراء القدامى من كان يغرم بالصورة لذاتها حيث أنه يستخدم الصورة للإقناع بصورة غير حاسمة إذ ليس فيها قوة المنطق الذهنى، ولكن لها بعض التأثير المقنع، وقد بلغ بالصورة فى هذا المنحى حدَّ البرهان ولو تبعنا صوره لوجدناها تخدم هذا الغرض فى أحوال كثيرة(٢).

وفى شعرنا الحديث تكثر الصور وتزداد، ونلاحظ أن الشاعر المعاصر فى كثير من حالاته يحب أن يبدع صوراً جديدة عاكسة لما يدور بخَلَده مترابطة فى مجموعها، يكوِّن منها صورة كبيرة، ولكن وإن كانت غايته تعجز أعماله عن تحقيقها لأن صوره تأتى محشودة مجتلبة، فيخل بالترابط الذى يريده، ولكن الناقد قد يستطيع أن يغوص وراء هذه الصور فيوجد الرابطة بين بعضها البعض ويصل الصور بعملية الإبداع، وأكثر ما يكون ذلك وضوحاً عند الشاعر المهجرى "إيليا أبى ماضى" وذلك فى قصيدته (المساء) إذ يريد أن يصور الكون

---

(١) فن الشعر، د/ إحسان عباس.
(٢) فن الشعر صـ٢٢١.

وما فيه أو ما يحويه من عناصـــره كالســـحب والشـــمس والأنهـــار والبحار حينما يأتيها المساء إذ يقول:

السحب تركض فى الفضاء الرحب ركض الخائفين

والشمس تبدو وخلفها صفراء عاصبة الجبين

والبحر ساجٍ صامت فيه خشوع الزاهدين

لكنما عيناك باهتتان فى الأفق البعيد

سلمى بماذا تفكريـــن

سلمى بماذا تحلمين

فهنا صورة عناصرها السحب، والشمس، والبحر، وســـلمى، ونرى حشداً نظن أن الشاعر قد جمعه اقتساراً فإذا فكرنا قليلاً ورأينا الشاعر يضع الإنسان فى مواجهة الطبيعة بدا لنا شئ من الانسجام، فإذا تذكرنا أن سلمى يائسة لأنها تحس حلول الليل ورأينا فى السحب رمزاً للأحلام الهاربة، ورأينا فى الشمس المعصوبة الجبين صـــورة سلمى نفسها بقلقها النفسى وتخوفها من اقتراب المساء ثم لمحنا فى سجو البحر وهدوئه ذلك الكيان الذى يبدو هادئاً فى ظاهره، أو ذلـــك الهدوء الشامل الذى لا تقلقه تغيرات ما حوله من مظاهر أدركنـــا أن السحب والشمس والبحر لم تحشد لأن الشاعر يجلب من هنا وهنـــاك

لينقل إلينا صورة، ولكن لأنه يحس المعنى المسائى الذى يريد تصويره إحساساً دقيقاً فيما حوله من مناظر الطبيعة(١).

ولا تقاس جودة الصورة من خلال ما تحويه من مجازات، وإنما المعيار الحقيقى للجودة هو قدرتها على الإشعاع وما تزخر به من إيحاءات.

والجارم فى تصويره ما هو إلا رسَّام بالكلمات وفى تصويره يوظف عناصر الطبيعة لتساعد فى إبداع صوره أنظر إليه وهو يقول:

يزداد فى عصف الشدائد ويجول حين يضيق كل مجال
كالشعلة الحمراء لو نكستها لأضفت إشعالاً إلى إشعال
والسيل إن أحكمت سد دقَّ الحصون فعدن كالأطلال(٢)

فهو هنا قد لجأ إلى عناصر الطبيعة ليدلل على ما قال فى سعد زغلول من أن سعداً كلما أرادوا إخماد صوته ما ازداد إلا قوة مثله فى ذلك مثل الشعلة لو تركتها مستقيمة لأعطتك ضوءاً فإن نكستها لأضفت إشعالاً وضوءاً إلى إشعالها وضوئها.

وكذلك السيل الجارف إن أحكمت أمامه السدود وأطالاً، وكذلك السيف لولا قدحه ووضعه فى لهيب النار ما كان له حدٌّ فصَّال.

---

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة، د/ على عشرى زايد صـ٩٨.
(٢) الديوان جـ١، صـ٣٦.

ومن قدرة الجارم التصويرية أنه جعل المعنويات متمثلة فـــى الأخلاق مجسدة حتى جعلها أوضح وأظهر من المحسوسات وذلك فى قوله:

عرفوه وضـــاح الســـريرة شر الـــبلاء خصـــومة الأنـــذال

إن الشـــجاعة أن تناضـــل لا أن تدب كفاتـــك الأصـــلال(١)

والجارم متنوع فى صوره فتارة سريعة وأخـــرى بطيئـــة – وتارة مشرقة وأخرى غائمة وتكون صـــوره نابعـــة مـــن الغـــرض والموقف الذى ينظم شعره.

(١) الديوان جـ١، صـ٣٦.

معالم الموسيقى الشعرية عند الجارم

صيغ الشعر العربى منذ القدم فى كلام ذى توقيع موسيقى ووحدة فى النغم تشد من أزر المعنى وتجعله ينفذ إلى قلوب سامعيه وتوحى بما لا يستطيع القول دون موسيقى أن يوحى به، والإنسان منذ نشأت الفنون يطرب للنغم حتى فى عصره الفطرى، لذلك يقول بن عبد ربه فى كتابه العقد الفريد: "زعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقى من المنطق لم يقدر الإنسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس وحنت إليه الروح، ولذلك قال أفلاطون: لا ينبغى أن تمنع النفس من مكاشفة بعضها بعضاً، ألا ترى أهل الصناعات كلما خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان"(١).

والموسيقى تعد العنصر المميز للشعر عن غيره من فنون الكلام لذلك يقول أحد الباحثين "لا يوجد شعر بدون موسيقى يتجلى فيها جوهره الزاخر بالنغم، موسيقى تؤثر فى أعصاب السامعين ومشاعرهم بقواها الخفية التى تشبه قوى السحر، قوى تنشر فى نفوسهم موجات من الانفعال يحسون بتناغمهم معها، وكأنما تعيد فيهم نسقاً قد اضطرب واختل نظامه، فهى ترجع به إلى سويته،

---

(١) العقد الفريد: ابن عبد ربه – طبعة المطبعة الشرقية حـ٣، صـ١٧٧.

ونقصد سوية حياتنا الوجدانية، وبذلك فإن موسيقى الشعر تشبع فينا حاجات عميقة إذ تعيد الأوتار المشوشة فى قيثارة حياتنا الوجدانية نسقها الطبيعى، وهو إحساس دقيق بأن الموسيقى لب الشعر وعماده الذى لا تقوم له قائمة بدونه"(١).

والنقاد العرب قد جعلوا من الموسيقى الشعرية قالباً محكماً لا يجوز المساس به من خلال التزامهم بمجموعة من التكرارات الصارمة حيث يكون شكل الموسيقى على عدة التزامات منها:

١) تكرار وحدة صوتية معينة هى "وحدة الإيقاع" التى تتألف فيما عرف عند علماء العروض باسم التفاعيل.

٢) تكرار عدد معين من وحدات الإيقاع يؤلف بدوره وحدة موسيقية جديدة مركبة هى البيت الذى يتألف من عدد محدد من التفاعيل أو وحدات الإيقاع لابد من التزامه فى كل بيت على امتداد القصيدة.

٣) تكرار صوت معين أو مجموعة من الأصوات – الساكنة أو المتحركة – فى نهاية كل بيت بحيث يلتزم هذا الصوت بعينة فى آخر أبيات القصيدة كلها وهذه هى القافية.

٤) الالتزام بتكرار صيغة محددة من صيغ التفعيلة فى البيت وهى آخر تفعيلة فيه ويسمونها الضرب، فإذا جاءت هذه التفعيلة فى

---

(١) فصول فى الشعر ونقده – د./ شوقى ضيف، صـ٢٨.

البيت الأول على صيغة معينة سواء أكانت صحيحة أو معلة، وجب أن تلتزم هذه الصيغة بعينها طوال القصيدة.

وهناك نوع أخر من الموسيقى يسمى الموسيقى الداخلية وينشأ هذا النوع عن اختيار ألفاظ ذات وقع خاص وتأليفها فى صورة صوتية معينة تبعث فى الفكرة والعبارة روحاً جديدة تجعلها أقدر على النفاد إلى النفس، وتحكم هذه الموسيقى قيم صوتية أوسع من الوزن والنظم وهى تساير الموضوع وتزيده ثراء فى العاطفة، وقوة فى التأثير ومن هنا نحس تفاوتاً فى الموسيقى بين الأغراض الشعرية فلا تتساوى أنغام مع الرثاء، أو الحماسة مع الحنين، كما تحس هذا التفاوت فى موسيقى الشعر بين اللين والشدة والانخفاض والارتفاع والطول والقصر، تبعاً للمواقف المختلفة، وهذه الموسيقى الداخلية منها لون واضح يعتمد على التكرار، مثل الجناس، حسن التقسيم، الازدواج، المقابلة وغير ذلك من المحسنات البديعية التى يمكن إدراكها.

ولون خفى لا يدرك فى يسر وسهولة، ولكننا نحسه فيما يشيعه النص من جو يلائم حالة الشاعر النفسية ويتفق وتجربته.

وهذا اللون من الموسيقى ينشأ من حسن اختيار الكلمات، وحسن التأليف بينها، واختيار الصور والأخيلة الموحية والمؤثرة.

والجارم شاعر عربى أصيل يحترم تراث آبائه وأجداده ولذلك كان من أئمة مدرسة المحافظين، وقد كان ملتزماً بأصول موسيقى الشعر العربى التزاماً صارماً، وذلك إيماناً منه بأن هذا الالتزام هو الطريق الأمثل فى التعبير عن تجربته وصياغته للشعر.

والشاعر لا يكفيه أن يتصور موضوعه ويجمع صوره ويخمّر الموضوع فى ذهنه، وتنهال عليه الألفاظ فحسب بل يُطلب منه أن يضعها فى هيئة منتظمة منسقة ذات توقيع وجرس تسير وفق نظام معين ووقع متكرر يُحدث فى النفس هزة عند تلقيها لهذا الكلام أو هذه الموسيقا(١).

والجارم كان يختار البحر الذى يتناسب مع الغرض الذى يريد أن ينظم فيه عمله وتجربته، وإذا أردنا تطبيق ذلك فلنعمد إلى بعض تجاربه من هذه التجارب قصيدته التى قالها فى تهنئة الملك "فاروق" بعيد ميلاده والتى يقول فيها:

بهر الوجود بلؤلؤى ضيائه

نجم تألق فى بديع سمائه

لبس المساء به غلالة مقمر

حتى كأن الصبح من أسمائه(٢)

---

(١) شاعر الشام شفيق جبرى بين التراث العربى والإبداع الفنى، د. عبد الفتاح على عفيفى، صـ٢٥٥.
(٢) الديوان حـ٢، صـ٣٩٣.

وتطامنـــت زهـــر الكواكـــب هيبـــة

للمشـــرق الوضـــاح فـــى عليائـــه

هيهات أيـــن ضـــياؤها مـــن ضـــوئه

وســـناؤها مـــن بعـــد أوج ســـنائه

فهذه قصيدة من فرائد شعر الجارم ولقـد اختـار الشـاعر لقصيدته بحراً يتناسب مع جوها وفكرتها، فصاغها على وزن بحـره الكامل، وهذا الوزن مـن الأوزان التـى كـان القـدماء يؤثرونهـا ويتخذونها ميزاناً لأشعارهم ولاسيما فى الأغراض الجدية، وهو لكثرة مقاطعه، يتناسب وجلال مواقـف المـدح، والتهنئـة، والمفـاخرة، والمهاجاة، والمناظرة، تلك التى عنى بها القدماء عناية كبيرة وهـذا البحر أسماه الخليل بن أحمد بهذا الاسم لأن فيه ثلاثين حركـة لـم تجتمع فى غيره من بحور الشعر، وله تسعة أضرب لم يحصل عليها بحر آخر"(١) ومن الواضح أن بحر الكامل يعطى إمكانيـات للسـرد والبسط القصصى، وقد اختار الجارم بحر الكامل ليصب فـى قالبـه وعلى وزنه تجربته لما فيه من البطء فى الإيقاع يوافق جو المـدح لما فيه من أناة وروية، وهو بحر أجزاؤه بطيئة وليست سريعة كبحر المتقارب أو الوافر أو غيرهما ومما جعله يمعـن فـى هـذا الـبطء اختياره للهمزة لتكون روياً لقافيته، وأكثر من الإمعان فى هذا البطء ذاك الخروج فى القافية الذى نشأ عن إشباع حركة هـاء الوصـل،

(١) موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور، د./ صابر عبد الدايم، صـ٨٣.

والذى أوحى له بهذا الوزن وهذا الروى وهذا الخروج حالته النفسية حيث أن نفسه آمنة مستقرة فى ظل الملك فاروق والأمن يدعو إلى الروية ومن الموسيقى الخارجية أيضاً أننا وجدناه يعمد إلى التصريع(١) فى هذه القصيدة ويكرره أكثر من مرة مع أن المتعارف عليه أن التصريع يكون مرة واحدة فى البيت الأول من القصيدة، ولكن الشاعر صرع فى ثلاثة أبيات وهى كما يلى:

فى المطلع حيث قال:

بهر الوجود بلؤلؤى ضيائه

نجم تألق فى بديع سمائه

وكذلك صرع فى البيت الرابع منها حيث قال:

هيهات أين ضياؤها من ضوئه

وسناؤها من بعد أوج سنائه

وكذلك فى البيت الرابع والستين منها حيث قال:

يوم أغر كأن صفو سمائه

صفو النعيم بظله ورخائه(٢).

والجارم بتكرار هذا التصريع لم يخرج عن التزامه بالموروث الشعرى والعروضى، وإن كان هذا الخروج عن المألوف من وحى

(١) التصريع هو: ما غيرت عروضه للإلحاق بضربه بزيادة أو بنقص.
(٢) الديوان صـ٣٩٧.

الفن، وكان يصرع عندما يخرج من معنى إلى معنى جديد فى تجربته لينبه المتلقى إلى هذا الانتقال من معنى إلى آخر.

أما عن الموسيقى الداخلية:

فتتمثل فى ألفاظه واختياره لها، واتساق أساليبه مع جو المدح، مما عبر عن مشاعره بصدق واتساق مع حركة النفس المادحة والمهنئة.

وكذلك ساعد على وضوح الموسيقى الداخلية ما حفلت به القصيدة من نغم المقاطع، تتناسب مع جلال الموقف، مما يشهد للشاعر بالطبع المؤاتى الآسر للنفوس بروعة اللفظ ودقته وحسن اختياره أما عن القافية فإن لها صلة قوية بموسيقا الشعر، فحينما يستقر الشاعر على وزن معين يتطلب ذلك أن يستقر على نهاية موحدة وروى واحد تحقيقاً للطرب، وجذباً للأسماع، وضماناً للاستمرار فكما يقول أحد الباحثين: "القافية الناجحة فن دقيق لا يقدر على تحقيقه سوى من برعوا فى صناعة الشعر، وتمرسوا على قوله، ودرسوا عيونه، ووقفوا على دقائقه وأسراره، والقافية الناجحة هى التى تكون كالموعود به المنتظر، وهى المتمكنة من

البيت فى مكانها وليست هى القلقة فى مقرها المجتلبة بحيث يمكن الاستغناء عنها(١).

وهذا يعنى أن كلمات القافية فى الشعر الجيد ذات معان متصلة بموضوع القصيدة بحيث لا يشعر القارئ أن البيت مجلوب من أجل القافية، بل تكون هى المجلوبة من أجله ولا ينبغى أن يؤتى بها لتتمة البيت بل يكون معنى البيت مبنياً عليها ولا يمكن الاستغناء عنها، والجارم فى شعره ملتزم بأصول القافية وقواعدها، وهو بهذا يرضى نقاد الشعر الذين يتطلبون فيها أن يتشوفها المعنى، وأن تتمكن فى موقعها من البيت، وأن تكون مشاكلة للمعنى والعاطفة والموقف، وأن تكون حفيفة على الأذن بجرسها ونغمتها.

---

(١) شفيق جبرى شاعر الشام بين التراث العربى والإبداع الفنى، صـ٢٦٥.

الخاتمـــة

ومن النتائج التى توصل إليها البحث ما يلى:

١- أن أفضلية مصر محققة وذلك لاهتمام الله – سبحانه وتعـالى – فى قرأنه وكتبه السماوية بها إن دل هذا على شئ فإنمـا يـدل على هذه الأفضلية.

٢- وكذلك ثبتت الأفضلية من خلال السنة النبوية المطهرة.

٣- وتبعاً لتفضيل الله ورسوله لها. أصبحت مهوى فؤاد كل أهلهـا وزائريها إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٤- مصر فى عيون الشعراء فريدة ومحببة عشقوها وتغنـوا لهـا وفتنوا بها وذلك على مدار التاريخ.

٥- الشاعر "على الجارم" أحب مصر الفرعونية وتغنى لها وعـزف لها على قيثارة شعره.

٦- كما أحب مصر، أحب بعض مدنها من أمثال مسقط رأسه "رشيد" والإسكندرية والفيوم وغيرها.

٧- أحب الجارم مصر، العلوم والفنون.

٨- أحب عظماءها وما هذا إلا حباتً لمصر، دفاعاً وانتمـاءاً لـذلك قال:

تعـــــيش مصـــــــر وتبقـــــــى

فقـــــــرة العـــــين مصـــــــر

(على الجـارم)

المراجـــع

١) القرآن الكريم
٢) الأسلوب أحمد الشايب.
٣) الجارم فى ضمير التاريخ – د./ أحمد على الجارم.
٤) العقد الفريد – ابن عبد ربه – المطبعة الشرقية.
٥) اللغة والدلالة فى الشعر د. على عزت.
٦) المنتخب محمد أدب العربى.
٧) النجوم الزاهرة – ابن نفرى بردى، الطبعة الأولى.
٨) النقد الأدبى الحديث – أحمد كمال زكى.
٩) ديوان البهاء زهير تحقيق محمد أبو الفصل إبراهيم – محمـــد طاهر الجبلاوى.
١٠) ديوان الجارم طبعة دار الشروق.
١١) ديوان حافظ إبراهيم دار العودة بيروت جـــ٢.
١٢) ديوان صرخة فى واد للشاعر محمود غنيم.
١٣) شاعر الشام شفيق جبرى بين التراث العربى والإبداع الفنـــى د./ عبد الفتاح على عفيفى.
١٤) على الجارم باحثاً وأديبا – محمد الغزالى حرب.
١٥) على الجارم شاعر العروبة د./ محمد رجب البيومى.
١٦) فصول فى الشعر ونقد د./ شوقى ضيف، دار المعارف.
١٧) فضائل مصر المحروسة – ابن الكندى – تحقيق علـــى محمـــد عمر طبعة الخانجى.
١٨) فضائل مصر د. إبراهيم أحمد العدوى، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، عدد ٤٨، ١٩٩٩م.

١٩) فى موكب الشمس دكتور/ أحمد بدوى الجزء الثـــانى، طبعـــة ١٩٥٠.
٢٠) مجلة فصول العدد الثانى المجلد الأول، يناير سنة ١٩٨١م.
٢١) مختصر صحيح البخارى.
٢٢) مصر عبر الزمان – بهجت إبراهيم دسوقى، طبعة روزليوسف.
٢٣) موسيقى الشعر العربى بين الثبات والتطور د. صابر عبد الدايم يونس، الطبعة الثالثة.
٢٤) نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب – تحقيـــق د. إحســـان عباس، حـــ٢.
٢٥) وطنية شوقى أحمد الحوفى.